# حجر بيرو

رواية

BATU BIRU

ندا سُليمان

دار البشير

# حَجَر بيرو

ندا سُليمان

الطبعة الأولى
**1442 هـ**
**2021 م**

**اسم الكتاب:** حَجَر بيرو
**التأليف:** ندا سُليمان
**موضوع الكتاب:** رواية
**عدد الصفحات:** **208** صفحة
**عدد الملازم:** **13** ملزمة
**مقاس الكتاب:** **14x20**
**عدد الطبعات:** الطبعة الأولى
**رقم الإيداع:** **2021 / 11033**
**الترقيم الدولي:** **978 - 977 - 278 - 881 - 1**

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

رواية

# حَجَر بيرو

ندا سُليمان

دار البشير للثقافة والعلوم

# شكر

إلى عينيّا اللّتين أرى بهما جمالَ الدنيا؛ «**أمّي وأختي**»

إلى رفيقات درْبي؛ «**ديما، أسماء، سماء، هند الصفتي**»

إلى «**أمين الرحمن، أبو جهاد، د. أحمد جمال، م. إسلام رزق،**

**الشاعر أ. زكي خلفه، الشاعر محمود علي، الروائي د. أحمد السعيد مراد**»

شكرٌ خاصّ لمَن لن توفّيه كلّ كلمات الشكر؛ «**محمد أيوب**».

# إهداء

إلى مَن يحملونَ راياتِ الأمل رغمَ ولادتهم مِن رحم الألم.

في السّقفِ المرفوع، الشمسُ تجُرُّ ثوبها وتُلملمُ نورها، تتوارى خلفَ المُزنِ على استحياءٍ وهي تُودِّعُ الأفق، فانتشتِ الزّرقاءُ بحُمرةِ الشّفق، وعلى الأرض جالسٌ يُراقبُ خيوط الشّفق- التي سقطتْ على حقول القصب- فصبغتْ خَضارها بالعسليّ اللامع، كم يعشق الشّمس! ورغمَ مقتِه لغروبها يحبّ أن يتأمّله! وما يجعل الصبر حيًّا في نفسه على وداعها؛ أنّها غربتْ من زرقائه لتُشرق في أخرى، وما يُطمئنُه أكثر أنّ الشمس لا تُخلف وعدها، فكلّما ودّعته في غروبٍ ووعدتْه بعودةٍ لا تُخلف موعدها أبدًا. كمْ دعا لوالديه لأنهما اختارَا له اسمَ «شمس»! مِن المؤكّد أنهما كانا يعشقانها، فانتقل هذا العشقُ وراثيًّا إليه!

- ألم أُخبرك بأنّنا سنجدُه هنا يا فاروق؟

سرقتْه هذه الجُملة من تأمّله، فالتفتَ نحو قائلها ضاحكًا يقول بلهجةٍ صعيدية:

- لا مهربَ منْكما! هل تمّت كتابتُكما على بطاقتي التموينية؟

قهقَهَا وهمَا يفترشان الأرضَ جانبه، نظرَ أحدُهما للقادم معه قائلًا:

- أخبرْه يا كامل بما عرْفناه للتّو؛ ربما يُغيّر رأيه.

فقالَ كامل لشمس:

- أتذكرُ مصنعَ الطّوب المهجور في حوض الزمر؟

عقدَ حاجبيه سائلًا:

- أيّ مصنع؟!

أجابَ كامل مُحاولًا تذكيره:

– مصنع كفر الشيخ يا شمس.

غضّن زوايا عينيه، ثمّ بسطَهما تدريجيًّا وهو يقول:

– أجل.. أجل تذكّرته، ماذا به؟!

خرجتِ البُشرى من بيْن شفتي كامل:

– عادَ عارفُ اليوم، وأخبرنا أنّه ذهب إلى هناك معَ صديقيْه، لقد عادوا بخيرٍ بدون خدْش واحد، لا عفاريتَ هاجمتْهم، ولم يختفوا بدون عودة كما يزعُم الناس!

ابتسمَ بسخريةٍ، ثمّ قال:

– ألم أخبركما بأنّها مجرّدُ خرافاتٍ وأساطير؟

تقافزتْ حروفُ فاروق بحماسٍ على شفتيْه وهو يقول:

– بالطّبع، وهذا أيضًا ينطبقُ على كهفِ الجبل، ما يُردّده الناس عنه مجرّدُ خرافات، فلنذهبْ إلى هناك، ونبحث عن الكنز.

انتفختْ أوداجُ شمس وهو يقول بانفعالٍ:

– أجُننتَ يا فاروق؟ عن أيّ كنزٍ تتحدّث؟! أتصدّق تلك الأساطيرَ التي ربّتنا عليها الجدّةُ زهرة؟!

تدخّل كامل مُدافعًا عن قول فاروق:

– وماذا سنخسرُ إنْ جرّبنا؟ مادمت لا تؤمنُ بتلك الخرافات إذًا فلنْ يحدث شيء، وإن لم نجدْ كنزًا فكعادةِ كلّ مرّة، نكون قد ربحْنا مغامرةً جديدة نحْكيها لأطفالنا والأحفاد.

بدَا القلقُ جليًّا على وجْه شمس، ثمّ تجلّى في صوتِه وهو يقول:

– قلبي لا يشعرُ بالاطمئنان هذه المرّة!

ضحكَ كامل ثمّ قال:

– في كلّ مرة تقولُ الجملة ذاتَها، وفي النهاية تكتشفُ أنّه مجرّد شعورٍ زائف!

تحلّى شمس بالصّمتِ قليلًا، مُطلِقًا العنانَ لأفكاره، زمّ شفتيْه ثمّ قال:

– حسنًا، ولكنّها ستكون المغامرةَ الأخيرة.

قالَا في صوتٍ واحد «أجل، ستكون الأخيرة»، ثمّ تابع كامل «الليلة بعد صلاة العشاء، سننطلقُ برفقة عارف نحوَ الجبل».

***

لوّنت العتمةُ السماءَ بريشتها، قاوم القمرُ والنّجومُ فهُزموا أمامَ سيّد الألوان. لقد ساعدتهم العتمةُ على التسلّل إلى الجبل، دون أنْ يشعر بهم أحدٌ من سكّان القرية، ألقى القمرُ عليهم بصيصًا من نوره- الذي انتصرَ به في معركتِه معَ العتمة- فتحسّسوا به طريقهم، البردُ يجلدُهم بسياطِه كلّما صعدوا نحوَ رأس الجبل، وصلوا بشقّ الأنفس إلى باب الكهف، تمدّدوا أمامَه يلتقطون أنفاسَهم، ثمّ دخلوه بهدوءٍ، وجدوا المكانَ كالصّريم فخرجوا مُسرعين، أخرج فاروق «مصباح كيروسين» وعلبة ثقابٍ من حقيبة قماشية يحملها، ساعدَه كامل ورفعَ زجاجةَ القنديل، أحاطَ شمسٌ ضوءَ العود بيديه، وأشعل الفتيل ثمّ وضع كامل القنديلَ فانتعشَ ضوءه الذي كادَ يخبو، وبنفْس الطّريقة أشعلَا مصباحًا آخرًا كان بحوزةِ عارف ثمّ يمموا أولى خطواتهم

نحوَ الداخل بأقدامٍ وجِلة؛ بعد أن سمعوا صوتًا خافتًا يُشبه العويل، تقدّمهم عارف، كان ضوءُ مصباحه خافتًا فهمس:

- تقدّم بالمصباحِ يا فاروق.

رغمَ همسِه بدا صدَى جُملته عاليًا أفزعَهم، رفع كفّه مُعتذرًا، ثمّ تقدّم فاروق بالمصباح دون أنْ يتفوّه بكلمة، الكهفُ فارغ، ثمة رسومٌ على الحائط، لم يستطيعوا رؤيتها بوضوح، فأخرجَ كامل مِن الحقيبة شعلةً يدوية، ساعدَه شمس في إشعالها، اقتربوا بها من الحائط، لم يستطيعوا تفسيرَ الرّسوم، ولمّا فشلت محاولاتُهم تجاهلوها وواصلوا طريقَهم، وصلوا إلى ممرّين، فاقترحَ كامل أن يستكشفَ ممرًّا برفقةِ عارف، وهما يسْتكشفان الآخر ثمّ يلتقون مرّة أخرى في هذا المكان، لم يكنْ لديهم وقتٌ للتفكير في الأمر، على الفوْر تفرّقوا يُنفِّذون الخطة. وصلَ كامل وعارفُ إلى نهاية الممرّ ولم يجدَا شيئًا يُذكر، فعادا أدراجهما نحوَ الممرّ الآخر ليتبعَا صديقيْهما- اللّذيْن كانا يمضيانِ في توجّس- ثمّ تحوّل توجسهما إلى فزع بعد أنَ وجدَا بقايا عظام بشرية. لمح شمس أوراقًا جانبَ العظام، انحنى بجذعه قليلًا والتقطَها، قرّبَ فاروق المصباحَ فوجداها حروفًا بلغةٍ غريبةٍ لم يفهمَا شيئًا منها، نظرَا للحروفِ فاتّسعت أعينهما، ودار بينهما تساؤلٌ «هل كُتبتْ هذه الحروف بالدماء؟!» تبادلَا النّظراتِ المتوجّسة، واتّفقا بأعينهما على الخروجِ من الكهف بسرعة، وقبل أن يُنفّذا الاتّفاقَ وجدَا كامل وعارف قادميْن نحوَهما، أشارَ فاروق لهما بمصباحه نحو العظام، ثمّ همسَ شمس:

لا أظنّ أنّنا سنجدُ سوى وحوشٍ ضارية ربّما تُنهي حياتنا هنا!

سألَ عارف هامسًا:

- هل وصلتُما لنهايةِ الممرّ ولم تجدَا سوى العظام؟

أجابَ فاروق:

- لا، لم نُكملِ الطريق، فقط وجدْنا هذه الأوراق جانبَ العظام، فيها حروفٌ بلغةٍ غريبةٍ لم نفهمها! ثمّ خنقَ الخوفُ حروفه وهو يتابع «أخشى أن تكون مكتوبةً بالدماء!»

تجاهلَ كامل جملته الأخيرة وقال:

- لا مجالَ للعودة، مادمْنا هنا يجبُ أن نُكمل الطريقَ للنهاية.

كان صوتُه عاليًا بدون قصدٍ، فلكزَه شمس في كتفِه وأشار إليه بكفّه ليخفض الصوتَ، ففعلَ، وتابع بهمسٍ:

- لا مجالَ للخوف، أربعتُنا معًا ثمّ إنّنا لا نسمع أيّ صوتٍ هنا سوى أصواتنا، وصوت الهواء، وهذه العظامُ ربما تكون لحيوانٍ.

ردّ شمس:

- أنسيتَ أنّي وفاروق ندرسُ الطب؟ إنّها عظامٌ بشرية يا كامل، ثمّ انظر هناك، توجد جمجمة، يبدو أنّ الرأس كانت مفصولةً عن الجسد.

أومأ فاروق مُصدّقًا على جُملة شمس، فقال عارف:

- حتّى وإن كانت كذلك، أظنّ هذا سببًا أدْعى لنُكمل الطريقَ ونستكشف المكان، لن نخسرَ شيئًا، وربما يكون فارغًا كالممرّ الآخر.

سادَ الصمتُ لثوانٍ، يُقلِّبُ كلٌ منهم الفكرةَ في رأسه، ثمّ أعلنتْ نظراتهم اتفاقهم على أنْ يكملوا الطريق. دسّ شمس الأوراقَ في حقيبة فاروق، ثمّ توغّلوا داخل الممر، توقّفوا عند نهايته مشْدوهين، لم يكونوا بحاجةٍ للمصابيح؛ فقدْ وجدوا بحيرةً صغيرة ينبعثُ منها ضوءٌ أزرقُ يملأ المكان، مكّنهم هذا الضوءُ من رؤية التفاصيل حولهم، شعروا أنّهم خرجوا من الجبل إلى مكانٍ آخر، نبتتْ فيه الشّجيرات والأزهار، ولايعلمون كيف! اقتربوا من البحيرة ومازالتِ الدّهشة تأسرُ ملامحهم، المياه صافية، مكّنتهم من رؤية القاع بوضوح، رأوه مليئًا بالأزهار الزرقاء، وفي المنتصف صَدَفة بها حَجَر، تبيّن أنه مصدرُ الضوء، عادوا يتبادلون النّظراتِ في صمتٍ، فقطع عارف صمتَهم سائلًا بدهشةٍ «هل حقًّا أساطير الجدّة زهرة حقيقية؟!»

أجابَ فاروق بسؤالٍ آخر، وبنفْس الدهشة «هل هذا هو حَجرُ بيرو؟!»

أفسدَ عليهم دهشتَهم صوتُ كامل وهو يخلعُ ملابسه قائلًا بتصميم غير قابل للنقاش «سأجلبُ الحجَر». سحبَ نفسًا عميقًا ثمّ قفزَ إلى الماء، وصلَ إلى القاع سريعًا، مدّ يده نحوَ الحجر فأغلقتِ الصدفة عليه بعنفٍ، سمعوا صرخاتٍ، وهبّت رياحٌ أطفأت المصباحين والشّعلة، ذهبَ النور وتركهم في ظلماتٍ لا يبْصرون،أسرع شمس وهو يتحسّس طريقه نحوَ الشعلة، التقطها صارخًا «ألم أقلْ لكم إنّ قلبي ليس مُطمئنًّا؟»اقترب منه فاروق وبيديْن مُرتجفتيْن ساعده في إشعالها، ثمّ على ضوئها أشعلَ هو وعارف المصباحين، سبقهم شمس إلى البحيرة، حاول أنْ يرى شيئًا من قاعِها ليطمئنّ على كامل، وباءت مُحاولاته بالفشل، مرّت ثوانٍ ثقيلة بلا أثرٍ لكامل، مازالوا يسمعون الصّرخات، فقال عارف بصوتٍ مُرتجف:

-لنخرج مِن هنا بسرعة.

رفعَ شمس رأسه قائلًا بغضب:

– لنْ أخرج بدون كامل، يجبُ أن ينزل أحدُكما ليساعده، تعرفان أنّني لا أُجيد السباحة.

نظرَ فاروق لعارف بخوفٍ فبادلَه الآخر النظرةَ ذاتها، احتقنَ وجهُ شمس من الغضب ثمّ قال لعارف:

– خذِ الشّعلة، سأتغلّبُ على خوفي، وأُحـ

لم يُكمل جملتَه؛ فقدْ أخرج كامل رأسه مُحاولًا التقاطَ أنفاسه، سحبوه خارج الماء بسرعةٍ، كان يسعلُ بعنفٍ، ويُحملقُ فيهم بعيونٍ جاحظة، قرأوا في ملامحه أنّه رأى في الماء ما أفزعَه، انتظروا إلى أنْ بدأ يهدأ، فسأل عارف:

– هل أنت بخيرٍ يا كامل؟

همسَ بصعوبةٍ بالغة:

– علينا أن نرحلَ من هنا بسرعة، لقد حذّروني.

سألَ فاروق بخوفٍ:

– مَن هم؟!

تلفّت حوله بفزعٍ ثمّ قال:

– حُرّاسُ الحجر، حُرّاس برجاس، لنْ يدعونا نخرجُ به من هنا، ساعدوني على النهوض لا وقتَ لدينا، سنستكشفُ الحجرَ بعد خروجنا.

أثقلتِ الدّهشة لسانَ شمس برهةً، ثمّ خرجت حروفُه منفعلةً وهو يقول:

– ماذا؟! هل جلبتَ الحجَر؟ لِمَ لم تتركه؟!

ردّ غاضبًا:

- لم آتِ إلى هنا وأفعل كلَّ هذا لأعودَ إلى بيتي خالي الوفاض!

حاولَ النهوضَ فساعدوه، حملَ ملابسه قائلًا:

- سأرتديها بعدما نخرج، علينا التحرّك الـ

قاطعتْ حروفَه هزّةٌ في الكهف، أسرَ الرعبُ عيونهم، أعطى شمس الشعلةَ وحقيبة كامل-وفيها الحجر- لعارف، ثمّ أسندَ كامل، زادَ اهتزازُ الكهف وارتفع صوتُ الصرخات، بدأتِ الأحجار تخرّ فوق رؤوسهم، ركضَ عارف وفاروق في المقدمة، وشمس يُحاول مُجاراتهم في الركض وهو يسندُ جسدَ كامل، وفجأةً شيءٌ مجهولٌ سحبَ كامل بعنفٍ أسقطَ شمس أرضًا، حاول أن يتحسّس المكان في الظلام وهو يناديه، سمع صوتًا عاليًا تيقّن بعدَه أنّ هذا المجهول سحبَه إلى الماء، ظلّ يصرخ باسمه إلى أن بحّ صوته، شعر أنّ أحدًا يُطوِّق جسده ويشلّ حركته، تلفح وجهه أنفاسُه، يسمع فحيحَه، أنفاسُه باتت ثقيلة وخارتْ قوّته، حاول أن يتحصّن بآيات الله لكنّه نسي كلّ حرفٍ حفظه من القرآن! ظلّ يُتمتم بالبسملة، وهذا الجسدُ يخنقه شيئًا فشيئًا إلى أنِ انعقد لسانُه، أغمض عينيه وبدأ الاستسلامَ للموت، فجأةً سمعَ صرخةَ هذا المجهول، وشعرَ بقبضته ترتخي إلى أنِ اختفى، فتحَ شمس عينيه فوجدَ فاروق يقفُ بالمصباح والشعلة لاهثًا، رفعه عن الأرض وأسنده فاستعادَ بعضًا من قوّته، ظلّ ثلاثتُهم يركضون نحو الخارج، والكهفُ يتزلزل من حولهم، يشعرونَ بشيءٍ يجري خلفَهم، تابعوا مُتجنّبين النظرَ خلفهم، اقتربوا من باب الخروج فعلتِ الصّرخاتُ إلى أنْ كادت تصمّ آذانهم، انفجرَ المصباحان وانطفأت الشعلة فأصبحَ الظلامُ دامسًا، سمعوا

عزيفَ رياح يقتربُ منهم، فتابعوا الركض، لاحَ أمامهم ضوء القمر فعلموا أنّهم اقتربوا من بابِ الخروج، زادوا من سرعةِ ركضهم، وفجأة ابتلعتهم دوّامةٌ ظهرتْ من العَدم، تخبّطت أجسادُهم بلا هوادة، صرخوا من الآلام ثمّ فقدوا وعْيهم.

كان شمس أوّلَ المُستيقظين، تأمّل المكان برعبٍ ثمّ أيقظَ صديقيه، فانتقلت إلى أعينهما النظرةُ ذاتها، يتأمّلون المكان الذيً وجدوا أنفسَهم فيه، ولا يعلمون كيف وصلوا إلى هنا؟!.

❋❋❋

«سأنتظرُكَ تطرقُ بابي يومًا ما يا شمس،
حتّى وإن طرقتَه ولم أكُنْ في هذه الدنيا»

# (١)
# شمس

«سيأتي بها اللهُ وإن تأخّرت».. جملةٌ مكتوبة على ظهر سيارة لنقل الركاب، تقف منذ أكثرَ من ساعة وسطَ الزحام، وكأنّ القيظَ والزحام كانا ينقصهما صوتُ مصطفى كامل يشْكو حاله وهمّه وألمه! رفع السائقُ الصوت، فتأفّف ذلك المحشور في الأريكة، خلف مقعدِ القيادة بين رجليْن سمينين، احمرّ وجهه الحنطيّ من القيظ، رفعَ الجريدة الموضوعة على قدميْه، ولوّحَ بها أمامَ وجهه، العرق يتفصّد من جبينه، دسّ يدَه بصعوبةٍ في جيبِ بنطاله وأخرج منديلًا ورقيًّا مسح به جبينه، رمى نظرةً خاطفة على الطريق ثمّ زفرَ بعنف وهو ينظرُ للساعة الفضية التي تُحيطُ معصمه، لفتتِ انتباهه المرايا الدائريةُ الصّغيرة التي يُعلّقها السائق أمامه، لا يعلم سببًا لتزيين العربة بكلّ هذا العدد! تابع في إحداها السائق ينظرُ بجُرأةٍ لجسد الفتاة- الجالسة على الكرسي الأمامي جانبه، وتضع على الآخر حقيبتَها- تتحرّش عيناه بجسدها، دفعتها نظراته لأن تجذب حجابَها نحو صدرها وترْميه بنظراتٍ نارية، ابتسمَ بوقاحةٍ وهو يدنو منها فانكمشت وجسدُها يلتصقُ تلقائيًّا في ظهر الكرسي، ضحكَ السائق وحرّك إحدى المرايا الموضوعة أمامَها، وجّهها نحو صدرها ثمّ حرّك الأخرى نحو فخذيْها، فما كان منها سوى أن تجذب حقيبتَها بغضب وتضعَها على قدميها، راقبَ ما يحدُث في صمتٍ ثمّ زمّ شفتيه بغضبٍ؛ وقد عَلِم علةَ وجود المرايا.

لمحَ وجهه في المرآة الأمامية، هناك بقايا من المنديل الورقي مازالت عالقة في جبهته، رفع يدَه ومسحها، استوقفَه وجهُه أمام المرآة، تأمّل عينيه وابتسمَ حينما تذكّر أقوال أقاربه كلّما رأوه «لقدْ ورثت عينيّ أمّك الواسعتين السّوداوين» كان يعدّ هذه الجملة مدحًا له، باغتَ الحزنُ ابتسامته فقتلها ولوى شفتيْه، ثمّ أسرَ ملامحه، لقد كانتْ عيناه تسَعان العالم بأسْره، وبعدَ رحيل أمّه صارت دنياه في عينيه بوسْعها خانقة ضيّقة! ذابَ سوادهما فكوّن هالتيْن داكنتين حولهما، شردَ في عينيه فسنحتِ الفرصةُ لحبّات العرق- التي تسلّلت إلى شفتيه المُشقّقتين- أخرج منديلًا آخر، مسحَ به شفتيه ووجهه، ثمّ خلل أصابعه بين خصلاتِ شعْره الأسود الغزير، زفرَ بغضبٍ وهو يُعيدُ النظر للطريق، خرج من بيته والحماسُ يملأ قلبه، ثمّ ما لبث أن انطفأتْ جذوة حماسه وسطَ زحام القاهرة، نظر لاسم الجريدة- التي كان يُلوِّحُ بها منذ قليلٍ- وصوتُ رئيس التحرير يرنّ في أذنيه «لا فائدة منك، لا خبر يأتي في موعدِه، ولا حضور في الموعد، سأُمهلك شهرًا واحدًا وبعده لا أريدُ رؤية وجهك هنا».

بدأتِ العربة في التحرك فتنفّس الصّعداء، وصل أمام مقرّ الجريدة بعد موعد الاجتماع بساعة، أخرجَ توتره في زفرةٍ قوية، نظرَ لملابسه- التي اختفتْ منها معالم الأناقة- بعد حربه مع وسائل المواصلات، ثمّ بدأ في محاولاتٍ يائسة لتعديل هندامه، دلفَ المبنى، لمحه صديقٌ فأسرعَ إليه وقال حانقًا:

- تريد أن تخسرَ الوظيفة التي عانيتَ كثيرًا لتحصل عليها، أليس كذلك؟

ردّ بغضبٍ:

- وهل أقصدُ التّأخير عن موعدي؟ أنتَ أكثرُ العالمين بزحام القاهرة يا أمجد، وأ

قاطعَه:

– أجل الزّحام! عملنا يتطلبُ دومًا أن تكون أوّلَ الحاضرين في موقع الحدث.. والاجتماعات الهامة كاجتماع اليوم، فهل تظنّ أنّ الرئيس سيقبل عذرًا كهذا؟ تعلم أنني فعلتُ جلّ ما بوسعي لأشغله عنْ تأخيرك، لكنّي لن أستطيع فعلَ ذلك في كلّ مـ

قاطعَه بابتسامة هادئة وهو يربّت على كتفه:

– لا عليك يا صديقي، أعلمُ أنّك تفعل كلَّ ما بوسعك لتُساعدني، فشكرًا لك.

ربّت صديقه على كتفِه مواسيًا:

– مازال أمامك وقتٌ كافٍ لتُثبت نفسك.

ابتسمَ بسخرية ثمّ قال:

– هذا إنْ أعطاني الفرصة وأخرجني من رأسِه! أو على الأقلّ يكفّ عن تثبيطي ونعتي بالفشلِ كلّما رأى وجهي.

قال صديقُه بحماسٍ:

– حسنًا، وصلني إخطارٌ منذُ قليل أنّ مجموعة من الأطباء يقومون بوقفة احتجاجية أمام النّقابة، ما رأيك أنْ تذهب الآن وتُغطّي الخبر؟

ظهرَ الامتعاضُ على وجهه فتابع صديقه:

– أعلمُ أنّك تُريد سبقًا، أو خبرًا يُرضي «عاكف»، ولكنْ على الأقلّ حتى يحدث ذلك أرِه أنّك تُحاول.

رسم ابتسامةً باهتة ثمّ مضى في طريقِه إلى النقابة، ومازالت معالمُ الامتعاض على وجهه، وقفَ في مكانِ انتظار الحافلات، ولمّا وصلتِ الحافلة استبدلَ فكرة الذهاب للنقابة بالسيْر في الشّوارع؛ لعلّ الثقلَ الذي يجثمُ على صدره يزول، يسيرُ بلا هدفٍ، والأفكار تتقلّبُ في رأسه مع كلّ خطوة، يفكّرُ في الوحدة- التي أرستْ حبالها داخلَ نفسه، وسيطرت على حياتِه- مذ أن تخرّج من كلية الإعلام وهو يبحثُ عن وظيفة، كلّما ذهب إلى جريدةٍ إمّا يرفضونه لانعدام الخبرة، أو يجد الوظيفة نالَها مَن له واسطة، عملَ في وظائف كثيرة لا علاقةَ لها بما درسَه في الجامعة، ثمّ تركهم حينما لم يجدْ نفسَه فيهم، وها هو يودّع عامه الثامنَ والعشرين بلا وظيفة، بلا أهلٍ ولا أصدقاء، تُحيطه الوحدةُ من كلّ جانب، سمع أذانَ العصر فانتبهَ من شروده وتأمّل المكانَ من حوله، فأسرتِ الدهشةُ عينيه وتساءل كيف وصلَ إلى هنا دون أن يشعرَ بأنين قدميه! وجد نفسَه واقفًا بالقرب من مسجد، ساقتْه قدماه إلى المكانِ المثالي الذي يريده قلبُه الآن، فخلع نعليْه ودخل بهدوء، اتجه نحو مكانِ الوضوء وأخذَ ينفضُ عن جسده همومَ دنياه، خرج نحو المُصلّى، كبّر وبدأ يُصلي العصر، ولمّا سجد وجدَ الدموعَ تسيلُ من عينيه بلا استئذانٍ! البكاءُ كلماتٌ ثقيلةٌ على اللّسان رغم أنّها بلا حروفٍ! وحدَها العيون تستطيع البوحَ بها، تبوحُ بها دمعًا، وها هما عيناه تبوحان بما ثقلَ لسانُه عن حمله! سرقَه اهتزازُ الهاتف في جيب بنطاله من خشوعه، فتجاهله، لم يكفّ الهاتفُ عن الاهتزاز إلى أنْ أنهى صلاته والتقطه ليجدَ رقمًا مجهولًا، مسحَ وجهَه وعينيْه، ثمّ ردّ فسمع صوتًا غيرَ مألوفٍ لكهلٍ يتحدث بلهجة صعيديّة سائلًا:

– السّلام عليكم، هل هذا هاتفُ الأستاذ شمس الدين، حفيد الحاج الدكتور شمس الدين درغام؟

عقدَ الاستنكارُ حاجبيه مُجيبًا:

– أجل أنا، مَن المتّصل؟

ظهرتِ الفرحةُ في صوته وهو يقول:

– الحمدُ لله يا ولدي أنّه الرّقمُ الصّحيح هذه المرّة، أنا الحاج فتحي، صديق جدّك رحمه الله.

اتّسعتْ عيناه قائلًا بحروفٍ مُبعثرة:

– رحمه الله! هـ هل ماتَ جدّي؟

ردّ الرجل وقد اكتسَا صوتُه بالأسى:

– أجل، توفي منذُ أسبوعين، بحثنا عنك كثيرًا لنُخبرك، واليوم وجدنا رقمَ هاتفك وكنّا خائفين أن يكون خاطئًا، عظّم الله أجركم.

صمتَ برهةً يبتلعُ الصدمة، ثمّ قال بحزنٍ:

– شكرَ الله سعيكم.

تابعَ الرجل:

– جدّك، رحمَه الله، ترك أمانةً معي، اعْذرني يا ولدي أنا لا أستطيعُ السّفر، هلّا أتيت إليّ لتأخذَ أمانتك؟

فقال:

– حسنًا، أخبرني عنوانك.

أخرجَ قلمًا من جيبه، ودوّن العنوانَ في أحدِ هوامش الجريدة التي يحملها، سار إلى أقربِ محطّة مترو، ومنها إلى محطّة القطار، ثمّ صعدَ على متن القطار المُتّجه إلى صعيدِ مصر.

***

يُراقبُ الطريق من نافذةِ القطار، حاضرٌ بجسده، أمّا روحُه في مكانٍ وزمانٍ أُخر، تحديدًا في الليلة التي رغمَ نسيانه الكثيرَ من تفاصيل طفولته ظلّت محفورةً في ذاكرته! أمّه تبكي وتتوسّلُ أباه أن يتراجعَ عن قراره، لكنّه مُصرّ ويدسّ الثيابَ في الحقائب،كأنه يريد الهرب سريعًا من شيءٍ لا يعلمُ كنْهه! ما يذكرُه من حوارهما، أبوه صارخًا في وجْه أمّه:

– تحمّلت أباكِ غريب الأطوار هذا كثيرًا، أريد تربية ابني في بيئة طبيعية، وأظنّ أن هذا حقّي.

همستْ أمّه في خوفٍ وهي تنظرُ نحو الباب:

– اخفض صوتك؛ أبي سيسمعُك.

قال بتهكّمٍ:

– هه! حتى إنْ همست ألنْ تخبره عفاريتُه بما نقولُ ونفعل؟ لم يعدْ هناك فارق، فاختاري الآنَ يا ابنة الحلال إمّا أن تأتي معنا أو تجلسي هنا جانبَ هذا المشعوذ.

صرختْ في وجهِه بغضب:

– أبي ليس مشعوذًا!

أجابَ بسخرية:

- حسنًا، أعتذرُ يا ابنة صاحبِ الكرامات والمعجزات الخارقة، ماذا ستختارين؟

فتحَ جدّه الباب، وقال بهدوء:

- بالطّبع ستختاركما، هيّا يا ابنتي أعدّي الحقائب وارْحلي مع زوجك.

ركضتْ نحوَ حضن أبيها باكيةً، فمسحَ على رأسها وربّت على كتفها وهو يحبس دموعه، ثمّ رفع سبّابته محذّرًا زوجها:

- أريدُها أن تكون المرّة الأخيرة التي تبكي فيها ابنتي، إنْ جعلتها تبكي مرّة أخرى فلا تلومني.

تمتمَ بسخريةٍ:

- أجل، بالطّبع ستُسلّط عليّ عفاريتك لتؤذيني.

لم يردّ على سخريته، بل زجرَه بنظرةٍ حادّة أطلقت سهامَ الرّعب نحو قلبه، فابتلع لسانَه وخرجَ مُسرعًا من الغرفة، قبّل الرجلُ رأسَ ابنته وقال:

- لا تخافي يا قرّة عين أبيكِ، ستكونين بخيرٍ معه، وإنْ لم يكن يحبّني فهو يحبّك، ولم أوافقْ عليه إلاّ بعدما تأكّدت أنّه سيخافُ الله فيكِ.

رفعتْ رأسَها وردّت مِن بين شهقاتِ البكاء:

- وكـ.. وكيف سأتركُك يا أبي؟!

ابتسمَ بحنانٍ وقال:

- لا تقلقي سأكون بخيرٍ مادمتِ بخير.

لمحَ حفيده منزويًا في أحدِ أركان الغرفة، فأشار إليه باسمًا وناداه، تقدّم الصغير نحوه خائفًا حائرًا، طبعَ جدّه قُبلةً حانية على جبينه ثمّ جثَا على ركبتيه وضمّ كتفيْه وهو يقول:

- اعتنِ بأمّك جيدًا يا بطل.

صمتَ قليلًا ثمّ قال:

- تذكّر كلماتي جيدًا، واحفظِ الأمانة التي سأتركُها لك يومًا ما.

تُرى أهوَ ذاهبٌ ليأخذ تلك الأمانة التي ذكرَها جدّه في صغره؟ «يا عسليّة يا سكر النّباااات».

أخرجَه من شروده نداءُ بائع «العسلية» وهو يجوب القطار، اشترى منه ثمّ رحل الرجلُ وسلبَ معه لُبّ شمس إلى الماضي، كانتْ أمّه تشتري له «العسلية وسكر النّبات» وهما مُسافران لزيارة جدّه، لم يذكرْ أنّهما زاراه بعدَ الرّحيل سوى مرّتين، وفيهما كان أبوه يرفضُ مرافقتهما إلى أنْ رفض سفرهما لزيارته في المرّة الثالثة، ومن بعدها انقطعت الزّيارات، وتعمّد أبوه أن تنقطعَ سيرته من بيتهم، فحلفَ طلاقًا على أمّه إن تفوّهت باسمه في البيتِ مرّة أخرى، أو أمامَ شمس، سيُطلّقها ويحرمها من ابنها، غابت سيرةُ جدّه عن البيت تمامًا حتى ذكرتها أمّه عند وفاتها، وهي توصيه أنْ يذهب لزيارته ويطلب منه مُسامحتَها، رآه يومَ وفاتها، تعجّب الجميعُ من صبْره وصموده يومها! قبّل رأسَ ابنته قبل أن يُغسّلوها، حضرَ صلاة الجنازة في صمتٍ، ثمّ ضمّ «شمس» إلى صدره، ربّت على كتفه وقال جملةً واحدة قبل أن ينصرف:

«سأنتظرُك تطرقُ بابي يومًا ما يا شمس، حتى وإن طرقته ولم أكنْ في هذه الدنيا» لا يعلم لِمَ لم يفكّر يومًا في زيارة جدّه؟ أشَغَلته دنياه لهذا الحد؟!

ها هوَ الآن سيطرق بابه وهو ليسَ بدنياهم، «هل أخبرت جدّه عفاريتُه بهذه النبوءة؟!» نفضَ هذا الخاطر عن رأسه وابتسمَ ساخرًا وهو يُتمتم «سامحكَ الله يا أبي، عن أيّ عفاريت كنت تتحدث!» تساءل «تُرى ما هي الأمانةُ التي تركها لي جدّي؟! أيُعقل أن يكونَ كنزًا وسأُصبح من الأغنياء؟ يا سلاااام.. وقتَها سأكون رئيسًا لجريدتي، وسأجعل «عاكف» ساعيًا فيها، لا يفعل شيئًا سوى أنْ يُحضر الشاي والقهوة لي، ويعتذر عن كلّ كلمة تفوّه بها في حقي».. ضحك، ثمّ أسندَ رأسه على حافّة النافذة، وظلّت تتتابع الذكريات على رأسه إلى أنْ راح في سُباتٍ عميق.

***

انتشلتْه من غياهب نومه صافرةُ القطار، باغتته شمسُ الصباح وآلمتْ عينيه، فحجبها بيده ونَظرَ من النافذة فزعًا، يُحاول الوصولَ ببصره إلى اللافتة المُعلقة في المحطة، فأخبره الجالسُ جانبه عن اسم المكان، شكرَه ونهضَ مُسرعًا قبل أن يتحرّك القطار، خرج من المحطة وَاستقلّ إحدى سيارات الأجرة، وصلت السيارةُ لمكانٍ ثمّ أخبره السائقُ بعدها أنّ عليه استكمالَ الطريق سيرًا، سارَ وسط حقولٍ غنّاء، يشعرُ براحة غريبة تسري في نفسه كلما استنشقَ الهواء النّقي حوله، كم يفتقدُ هذا الهدوءَ والنقاء في غمرة زحام القاهرة! وصل إلى بيتِ الرّجل، رحّب به وأكرمَ ضيافته ثمّ عرضَ عليه أن يأخذ قسطًا من الراحة، لكنّه آثر أنْ يأخذه في بيتِ جدّه، تسلّم أمانته، حقيبة قماشية رثّة، ومعها مفتاح البيت، وصل إلى البيت، رأى طيفَه صغيرًا يتشبّث في يدِ جدّه الحانية، يسيران سويًّا نحو المسجد وهما يتْلوان فاتحةَ الكتاب، تابع الطيفيْن بعينيه إلى المسجد، نظرَ نحوه باسمًا ثمّ اقترب من باب البيت، وضعَ المفتاح في الرّتاج فسمع صوتَ جدّه في أذنه «سأنتظرُك تطرق بابي يومًا ما يا

شمس حتّى وإن طرقتَه ولم أكنْ في هذه الدنيا»، خيّم الحزنُ على قلبه، وقبلَ أن يُدير المفتاح في الرّتاج طرقَ الباب، تمنّى أن يسمع صوتَ جدّه يسأل «مَن الطارق؟» تمنّى لو سمع عكّازه يضربُ الأرض قادمًا ليفتحَ الباب ويضمّه قائلًا «كنتُ أعلم أنك ستطرقُ بابي» خجل من نفسِه، زفر بغضب آملًا أن يتخلّص بهذه الزّفرة من ثقل الحزنِ الجاثم على قلبه! فتح البابَ فأقبلتْ نسائمُ الذّكريات في صَرَّة وصكّت قلبه، يعبق المكانُ برائحة المسك- التي اعتاد جدّه أن يُغرقَ ثيابه بها- البيتُ كما هو لم يتغير شيءٌ فيه، الخوان في مُنتصف الصالة، سار نحوَه ووقفَ خلف كرسي جدّه في منتصفه، رآه يُجلسه جانبه، ويُذكّره بدعاء الطعام قبل أنْ يبدأ، نظرَ نحو المطبخ، فتذكّر أنفُه رائحة طعام أمّه الذكيّة، يشعر في فمه الآن بحلاوة «البقلاوة» التي كانت تصنعُها لهم ليلًا؛ لأنّ جدّه يحبّها من يدها، غرفة مكتب جدّه- التي كان يقضي فيها معظمَ وقته- وغيرُ مسموح بالدخول سوى لحفيده، انتقلت عيناه لغرفة نوم جدّه، تذكّر حينما كان ينامُ في حضنه ويسمعُ حكاياته قبل النوم، غرفة أبيهَ وأمه-التي صارتْ غرفة الضيوف- بعدما رحلوا إلى القاهرة، الأريكة في الصالة، كم اجتمعوا عليها يتسامرون ليلًا! كم استمعتْ إلى ضحكاتهم! كم شهدت على غضب جدّه وهو يتابع الأخبار! وأبيه وهو يتعصّب لفريق الكرة الذي يشجّعه، لمعت الدموع في عينيه حينما لمحَ سجادةَ صلاة صغيرة- صنعها جدُّه خصيصًا له- رآها مفروشة على الأرض، فأفزعَ قلبه سؤالٌ جالَ بخاطره «أكان جدّه ينتظرُه منذ آخر صلاةٍ صلّاها صغيرًا هنا؟!» جلسَ على الأريكة وأجهش في البكاء، يُقالُ إنّ طعمَ البكاءِ مالح، وهناك قول آخر إنّ طعمَه يختلفُ باختلافِ سببه، رجّح القولَ الثّاني في هذه اللحظة، فها هو يشعرُ بطعم بكاء الفقدِ يشبه بقلاوةَ أمّه وحلوى جدّه، يشبه حضنهما وحضنَ أبيه، يشبه حكايات جدّه، وقبلةً حانية من شفتي أمّه على رأسه، وأغنياتها

له قبلَ نومه، لمح عكّاز جدّه مُستندًا على الحائط، فتساءل «أتراهُ يسندُ على الحائط، أم الحائط- الذي أهرمه فراقُ صاحب البيت- يستندُ عليه!» لمحَ الحقيبة، فدفن شجونَه في مقابر قلبه، وكفكفَ دمعه ثمّ رفع الحقيبة جانبه على الأريكة، وحلّ الحبلَ المعقود- الذي يُغلقها-، وجدَ فيها صندوقًا خشبيًّا قديمًا مُغلقًا بقفل كبير، أخرجَ الصندوق وفتّش في الحقيبة عن مفتاحه فوجدَه في قاعها، التقطَه وسارعَ بفتح القفل، فوجدَ مخطوطاتٍ قديمة مكتوبةً بلغة غريبة! رفعها فسقطت من بينها قلادة، يتدلّى منها حجرٌ يبدو قطعةً مكسورة من حجرٍ أكبر، زُرقتُه غريبة، يظنّ الناظر إليه أنّه حوَى في داخله البحرَ والسّماء سويًّا، بُثّت في نفسه هيبة من مسّه، يذكر أن جدّه لم يكنْ يخلع هذه القلادةَ من جيده، تركها جانبًا وبدأ يُقلِّبُ في المخطوطات بحثًا عن حرفٍ عربيٍّ أو إنجليزيٍّ يفهمه، بدأ إرهاق السفر يُرسل جيوش الصداع لاحتلال رأسه، فأغلقَ الصندوق على المخطوطات، وتركه على الأريكة، حمل القلادة في يده مُتّجهًا نحو غرفة جدّه ولم يلاحظِ الورقة المطوية- التي سقطتْ من بين المخطوطات على الأرض- دلفَ إلى الغرفة، مازالت رائحةُ المسك تفوحُ من أركانها، لاح شبحُ ابتسامةٍ على شفتيه وهو يتأمّلها ويملأ صدرَه برائحة المسك، خلع ملابسَه والتقط إحدى عباءات جدّه، ضمّها ثمّ ارتداها، ارتدى عمامتَه ووقف أمام المرآة، لاحتْ دهشةٌ في عينيه ثمّ اتسعت ابتسامته، لم يلاحظْ من قبل أنّه يُشبهه لهذا الحد! نظرَ للقلادة التي وضعها على الفراش، قرر أن يرتديها لتكتملَ هيئة جدّه، طوّق بها عنقه، وما إنْ مسّ الحجرُ صدرَه ارتجف جسده، زلزالٌ ضربه، شعرَ أنّ قفصه الصدري ينطبقُ على ما يحويه داخله، ضاقت أنفاسُه واهتزت الأرض، وربَت من تحته، فأسرع نحوَ النافذة، فتحها على مصراعيها، يُحاول التقاط أنفاسه، خُيّل إليه أنّ القلادة تُضيء، مرّت ثانية شعَرَها دهرًا، ثمّ بعدها عادت له قوته وكأنّ شيئًا لم يحدث! كما أنّ الصداع

الذي احتلّ رأسَه اختفى فجأة! نظر للقلادة بخوفٍ فوجدَها كما كانت؛ لا ضوء ينبعثُ منها! زفر بهدوءٍ ثمّ أغلقَ النافذة، قرر النوم قليلًا؛ فربّما إرهاق السّفر هو السبب، تمدّد على الفراش يُفكّر في حياته البائسة، رغم أنّه التحق بالجامعة التي أرادها ويعملُ في المجال الذي حلمَ به إلاّ أنه ليس سعيدًا ألبَتَّةَ! تمنّى «لو يستطيع حلَّ القضايا والجرائم مثْلما يفعل المحقّقون، ويا لسعادته لو استطاع التحدث إلى الموتى، فيسأل المقتولَ مَن قتلك، ويصلُ للقاتلِ قبلَ رجال الشرطة! ربما وقتها فقط سيحترمُه عاكف ويقدّره»، ضحكَ من غرابة أفكاره ثمّ أغمضَ عينيه بهدوءٍ طاردًا إياها و«عاكف» من رأسه، تسلّل النُّعاس إلى عينيه، وفجأة سمع صرخةً أفزعته، فتح عينيه فازداد فزعه، وتملّك الرعبُ من جسده، ظلامٌ دامسٌ حوله، همّ أن ينهضَ فاصطدم رأسه بشيءٍ صلب، حاول دفعه، وبدون جدوى، هدأ هنيهةً ثمّ بدأتْ يدُه تتحسّس المكان من حوله «ما هذا ؟ هل أنامُ على التراب!» سأل نفسَه وهو يتحسّس الأرض من تحته، ثمّ اصطدمت يدُه في جولاتها بشيءٍ ما، ظلّت عيناه تتّسعان شيئًا فشيئًا وهو يستكشف الجسد الذي وقعتْ يده عليه، ثمّ سأل نفسه بخوفٍ وتردّد «هل هذا جسدٌ في كفن؟!» بدأ صدره ينهت صعودًا وهبوطًا، وهناكَ ارتعاشةٌ تملّكته، ابتعدَ عن ذلك الجسد فاصطدم بآخر، تحسّسه فوجدَ الشيء ذاته، رفعَ يدَه وتحسّس ما اصطدمت به رأسُه منذ قليل فوجده بابًا حديديًّا، ظلّ يطرقه بقوّةٍ؛ لعلّ أحدًا يسمعه! تعبَ من المحاولةِ فهدأ قليلًا؛ ليلتقط أنفاسه، يستكشف المكانَ أكثر لعلّه يجد مخرجًا، وكلّما مسّت يده شيئًا ارتجف مُتسائلًا «ما هذا! هل أنا محاطٌ بالجثث؟!» بدأ يشعرُ بالاختناق ثمّ جحظتْ عيناه، وتساءل «يا إلهي، هل أنا في قبر ؟!».

❋❋❋

أمَا زلتِ تحلمينَ بالرّقص على القمر؟

# (٢)
# زهرة

يُقالُ إنّ لكلّ منّا شمسيْن؛ شمسٌ تشرقُ كلّ صباح، وأخرى في قلبه، ولكن مهما أشرقت شمسُ الصباح فإنّنا لا نراها إذالم تشرقَّ شمس قلوبنا! بزغ الصباحُ في سماء «مانهاتن» في العاصمة الثقافية والاقتصادية «نيويورك»، في واحدةٍ من ناطحات السحاب، تقف أمام إحدى واجهاتِ المنازل الزجاجية فاتنة تبدو في العشرينيّات من عمرها، تُراقبُ شمس الصّباح، ورغم أنّ ناطحة السحاب المقابلة لها قد حجبتها عن عينيها، إلّا أنها رأتها بقلبها بعدما أشرقتْ شمسه، رَشِفت القهوةَ من قدح تحتضنه بكفّيها، أغمضت عينيها في انتشاءٍ وابتسمتْ وهي تُمتم معَ صوت فيروز- الذي يصدح في الشقة-:

«نسّم علينا الهوا من مفرق الوادي

يا هوا دخل الهوا خدني على بلادي»

رنّ هاتفها، ففتحتْ عينيها واقتربتْ من الطاولة، وضعت قدحَ القهوة والتقطت الهاتف، ابتسمتْ ملء شدقيها، ثمّ أجابت بالإنجليزية:

- صباحُ الخير حبيبي.. أنتَ في الأسفل؟. ممتاز.. أمهلني خمس دقائق وسأكون أمامك.

تركتِ الهاتف ثمّ أغلقتْ آخر زرٍّ في قميصها الأبيض الحريري، ارتدت سترتها ثمّ وقفت أمامَ المرآة تتطلّعُ إلى هندامها، لاحتْ نظرة رضا في عينيها، وابتسامة صافية على شفتيها المُكتنزتين، مظهرُها يوحي بأنها تستعدّ لموعدٍ

رسميّ؛ فقد ارتدت حُلّةً زرقاء، تنُّورتها تصل لما بعدَ ركبتيها بقليل وسترة من نفس اللّون، جلست على الأريكة وارتدت حذاءً من نفس زرْقة السترة- التي ظهرتْ وكأنها جزءٌ انسلخَ من زرقةِ عينيها الواسعتين- أخرجت خصلاتِ شعرها الكستنائي النّاعم المدفونة تحت السترة وهذّبت شعرها، نظرت لعنقها الخالي من الزينة ثمّ لخزانتها، اقتربتْ وفتحتها، أخرجت علبة سوداء أنيقة، تحسّستها بهدوء، فأعادها سحرُ هذه اللمسة إلى يوم ميلادها الثامن عشر، حينما قبّل جدّها رأسها وأهداها العلبة قائلًا «لا تفتحيها إلاّ بعدما أرحلُ عن هذه الدنيا، ولا ترتدي ما بداخلها إلّا في يوم تشْعرين فيه أنّكِ بحاجة للقوة» تظنّ أنها اليوم تحتاج القوةَ بشدةّ، ولأنها اشتاقت إليه كثيرًا، أرادت أن تحملَ معها أيّ ذكرى منه، فتحت العلبة، فرسمَ الحنين ابتسامةً على شفتيها، رأتْ قلادة يتدلّى منها حجرٌ يبدو قطعة مكسورة من حجر أكبر، زُرقته غريبة، تذكر جيدًا أنه لم يكنْ يخلع هذه القلادةَ من عنقه، وكلّما سألته عنها يُخبرها أنّها ذكرى من جدّته زهرة، قرّرت أن ترتديها لتكون روحه حاضرة معها في يوم مهمّ كهذا، فإذا برنينِ هاتفها، أغلقتِ العلبة ووضعتْها في حقيبتها، بعد أن قرّرت ارتداءها فور وصولها، التقطتْ ملفًّا موضوعًا على الطّاولة، رمت نظرةً خاطفة في مرآتها قبل أن تخرج وهي تُجيب:

- أنت في المرأَب؟ حسنًا، حسنًا سأدخل المصعد الآن.

وصلتْ إلى المرأب، لمحت سيارته ولم تجدْه، فابتسمت قائلةً بصوتٍ عال:

- هيّا اخرج من مخبئك؛ لا وقت للمزاح.

لم يردّ، فزفرت بغضبٍ مُصطنع، وقالت:

- جاااك هيّا سأتأخـ

طوّق جسدَها من الخلف فضحكت بمرحٍ، ولفّت جسدَها لتصبح في مقابلة وجهه، رفع زهرةً حمراء أمامَ وجهها قائلًا بالإنجليزية:

– زهرةٌ لأجمل زهرة في الوجود.

فردّت بالعربية متعمّدةً بغضبٍ طفولي:

– «زهرة» كنت سأحبّ أكثر سماع اسمي بالعربية يا يعقوب.

رفعَ حاجبيه استنكارًا، قرصَ ذؤابة أنفها اليوناني بخفّةٍ، وقال بالإنجليزية:

– جاكوب أو جاااااك، عزيزتي لا وجودَ لهذا الاسم، دعينا من الأسماء الآن هل تعرفين كم اشتقت إليكِ؟

قالها وهو يدْنو منها أكثر، همّ أن يُقبّلها فوضعتْ أصبعها أمامَ شفتيه وهي تبتعد قائلةً:

– لا تتعجّل، بقي أسبوعٌ واحد وسأصبحُ زوجتك، هيّا أطلق سراحي سنتأخر.

زفرَ بنفادِ صبرٍ، وأطلق سراحَ جسدها قائلًا:

– لا أعلمُ متى ستتخلّين عن شرقيّتك؟ مَن يسمعك ويرى تصرّفاتك لا يظن أبدًا أنكِ ولدتِ وعشتِ هنا!

أجابتْ بابتسامة هادئة:

– إنّها هويّتنا يا يعقوب، أتحدّث معك بالعربية لأطمئنّ كلّ فترةٍ على أن هويتي مازالت كما هي، لست مثلك يا عزيزي، جاكوب أو جاك اعلم أنّ

تغييرك لاسمك أو مظهرك لن يُغيّر حقيقة كوْنك عربيًّا، عليكَ أن تفتخر بهذا الأمر.

أنهتْ جملتها ثمّ دلفتْ إلى السيارة، فتبعها خلفَ المقود وانطلق. قطعت الصمتَ الذي خيّم عليهما سائلةً:

- كيف كانت رحلتك؟

قوّس شفتيه لأسفل ثمّ قال:

- أمممم، بالطّبع سيئة لأنّكِ لم تكوني معي.

رفعَ كفّها إلى فمه، طبعَ قبلةً في باطنه وقال:

- أجملُ لحظة فيها هي العودة ورؤيتك.

تورّدت وجنتاها، وضحكتْ بمرحٍ، ثمّ قالت:

- إذًا، في المرّة القادمة جرّب أن تُخبّئني في حقيبتك.

طبعَ قبلةً أخرى في كفّها، ثمّ قال:

- لا أحتاجُ للحقيبة؛ فأنا أُخبئكِ دومًا هنا.

أشارَ نحو قلبه، ثمّ تابع:

- وإذا اشتقتُ إليكِ، فقط أُغمض عيني فتتجلّى صورتك وتسمع أذني ضحكاتك، أنتِ تحتلّين كلّ حواسي يا زهرتي الحلوة.

ازدادَ تورّد وجنتيها، واتّسعت ابتسامتها، انحرفتِ السيارة قليلًا فاحتلّ الخوف ملامحها وهي تسحبُ يدها وتهتف بخوفٍ:

- يعقوب، انتبه!

ضحكَ مُتمتماً «جبانة»، ثمّ زادَ السرعة فرجَته أن يتمهّل، رفع حاجبه بمكرٍ قائلًا:

- قولي أحِبُّكَ أولًا.

رفضتْ فتمتمَ بتحدّ «حسنًا، كما أردتِ» زادَ السرعة أكثر فصرخت «حسنًا حسنًا، أحِبُّكَ يا مجنون». ضغط المكابح فارتجّت السيارة بهما، تأمّلها في صمتٍ وعيناه تخبرها شيئًا ما، سألت بقلقٍ:

- لماذا توقّفت؟ ماذا حدث؟!

كان على وشكِ أنْ يقول شيئًا، لكنّه تراجع قائلًا «لا شيء، وأنا أيضًا أحِبُّكِ» انطلقَ بالسيارة مرّة أخرى قائلًا:

- ستكونين اليومَ مُبهرة، أثقُ بكِ وبحلمكِ يا أعظم مُصممة أزياء.

ضحكتْ برقّة ثمّ تأمّلت الطريق، مُحاولةً الانشغالَ عن توترها، تفاجئت بصوت «فرانك سيناترا» يأخذُها إلى عالم الأحلام:

Fly me to the moon

Let me play among the stars

Let me see what spring is like

Oh in Jupiter and Mars

نظرتْ إليه بحبّ، فغمز بعينه، وحينما سمع:

In other words، hold my hand

ضمّ يدها، فأغمضت عينيها، وسافرت روحَها إلى باريس، حيثُ كانت تحضر دورة تدريبيّة لتصميم الأزياء، وبعدَ يومٍ شاقّ جلست في شرفة غرفتها

بالفندق، تستمتع بالهدوء وصفاء السّماء مع قدح من القهوة، وتتصفّح صورًا لأزياء النساء في القرن الماضي، تناهى لمَسامعِها صوتُ أغنيتها المفضلة «Fly me to the moon» ينبعثُ من الغرفة المجاورة لغرفتها، ابتسمت ثمّ تركتِ الهاتف من يدها، وأرهفت السمع، وكأنّ جارها شعر بها فرفعَ الصوت، نظرتْ للقمر، تركتِ القدح جانبَ الهاتف ووقفت تتخيلُ رجلًا وهميًّا يقفُ أمامها، أغمضتْ عينيها فرأته يطوّق خصرَها بيدٍ، وبالأخرى يضمّ يدها، تخيلته يُراقصُها فتمايلت معَ نسمات الهواء، ترقصُ على سطح القمر وتغني مع «سيناترا» إلى أن انتهى من الغناء، أعادَها من عالم الأحلام تصفيقٌ وجملةٌ بالفرنسية:

– كم أنتِ رائعة! ممتاااز.

وقفتْ مُجفلة تتأمّلُ بجارها الذي يقفُ في شرفته ويُصفّق لها، تورّدت وجنتاها وبدأت تُنزلُ ذراعيها المعلّقين في الهواء ببطءٍ، فأكمل بالفرنسية:

– أتعرفين؟ أحبّ هذه الأغنية كثيرًا، واليوم شعرتُ أنّني لأوّل مرّة أسمعها، أو ربما لأول مرّة أسمعها بهذا الجمال.

تفاعلَ جسدُها مع خجلها فانكمَش، كما فعلت يداها من الخجل، فيدٌ تداعبُ فستانها بتوتر، وأخرى تُواري بها خصلاتِ شعْرها خلف أذنها، انعقدَ لسانها فأومأت له ثمّ التقطت هاتفها، وهربت مُسرعةً إلى الداخل. مرّ يومُها الأخير بالفندق دون أن تخرجَ من الغرفة أو تقترب من الشّرفة، كرّر جارها فعلةَ الليلة الماضية فابتسمت وكرّرت هي أيضًا رقصتها في غرفتها، لكنّ هذه المرّة لم يكنْ رجلُ أحلامها مجهولًا، اختاره خيالها ليُشاركها رقصتها، فأخذتْ ترقص في غرفتها وتضحك بمرح.

وفي الصّباح الباكر عندما حانَ موعدُ المغادرة، مرّت أمام غرفته فوجدتْ نفسها تُبطئ خطواتها، تمنّت لو يخرج فتَراه للمرّة الأخيرة قبلَ أن تغادر، لكنّه لم يفعل، فغادرت سريعًا قبلَ أن تفوّت موعدَها، وعلى متْن الطائرة، بينما تتحدّث إلى جدّها عبر الهاتف قبل الإقلاع، تفاجأتْ بما تمنّته ولم تتخيّل حدوثه، كذّبت عينيْها وهي تتساءل «أيُعقل أن يكون نفسَ الرجل؟!» وكأنّه سمعَ سؤالها لنفسها فأراد أن يُبرّئ عينيها من تهمة الكذب، اقتربَ باسماً يرتدي زيَّ المضيفين، ثمّ قال بالعربية:

– لم أكنْ أعلم أنكِ عربية!

زادتْ دهشتها حينما تحدّث بالعربية، فأكمل باسماً يمدّ يدَ السلام إليها:

– أنا أيضًا عربي، يعقوب، من المغرب، عذرًا سمعتكِ تتحدّثين في الهاتف بدون قصدٍ، أظنّكِ مصرية، أليس كذلك؟

كعادةِ لسانها يخذُلها كلّما توتّرت، فاكتفتْ بإيماءة ثمّ ابتلعت دهشتَها وتداركت الموقف، مدّت يدَها بالسلام قائلةً:

– أهلًا بك، زهرة.

رفعتْ أحدَ حاجبيها استنكارًا، حينما لمحت بطاقةَ التّعريف المعلقة على يمين صدره وتمتمتْ «جاك!»، فقال موضّحًا:

– هذا اسمي المتداوَل هنا.

أومأتْ مُتفهّمةً، فطلب منها أن تُطفئ الهاتف؛ فالطائرةُ تستعدّ للإقلاع ثمّ ودّعها لأداء عمله، منذُ أن سحبت كفّها وهي تشعرُ أنّ كفّه مازال يضمّها، وجوده مُربِك، حاولت أنْ تنشغلَ بتصفّح المجلاتِ أو قراءة الكتب، ولا

فائدة، يُحاصرها بنظراته وابتسامته الآسرة إلى أنْ هبطت الطائرةُ على أرض الولايات المتحدة الأمريكية، عيناها تصولان وتجولان في المكان بحثًا عنه، رأتْه يبتسم ويُلوّح لها قبلَ أن تهبط الدّرج، طَمِعت في أن تراه مرة أخيرة قبلَ الرّحيل، لكن تلاشتْ أمانيها بوصول جدّها واصطحابها للبيت، ركبت السيارة وعينُها لم تبرح بوّابةَ الخروج إلى أنِ اختفت البوابة عن ناظريها.. لم ترَه مرّة أخرى لكنّه ظلّ ذكرى عابرةً كلّما جالت بخاطرها ابتسمت.

وذاتَ ليلة تململتْ في فراشها، زار طيفُه ذاكرتها فجافاها الكَرى، حاولت طرده من رأسِها ولا فائدة! واتتْها فكرةٌ فاعتدلت من نوْمتها، التقطتْ حاسوبها وفتحت حساب «فيس بوك» الخاصّ بها، وفي محرّك البحث كتبت بالإنجليزية «يعقوب»، ثمّ اسم والده-الذي لمحتْه على بطاقة التعريف-، ظهرت الكثيرُ من الحسابات، التي تحمل نفسَ الاسم، بحثتْ في جميعها ولم تجدْه، فاستبدلت «يعقوب» بـ «جاك»، ظلّت تبحث مرّة أخرى إلى أن ملّت، قرّرت أن تغلقَ الحاسوب وتعودَ لمحاولات النوم ربما تنجحُ هذه المرّة، لكنّها لمحت صورتَه فرقصت فَرحةً بانتصارها، فتحت ملفَّه الشخصي وأخذت جولة بين المنشورات والصّور- التي تملأ حسابه- تتحرّكُ بحذرٍ؛ كي لا ترتكبَ أيّ حماقة تفضحها، وحدث ما كانت تخشاه، وجدتْه يضعُ أغنيتَها المفضّلة، ودون أن تشعر ضغطتْ «إعجاب» ثمّ استوعبتِ الحماقة- التي ارتكبتها- للتّو، وألْغَته بسرعة، ليس ذلك فقط بل تركت الحاسوبَ وهربتْ إلى فراشها، وصلَها إشعارٌ على هاتفها، ثمّ تلته إشعاراتٌ كثيرة متتابعة، التقطتِ الهاتفَ فوجدته يقوم بالإعجابِ بكلّ منْشوراتها وصورها، ثمّ وصلها طلبُ صداقةٍ منه، وإشعارُ رسالةَ، فتحتها بتوترٍ فوجدت «سأكون أجرأ منكِ وأتركُ إعجاباتي، أمازلتِ تحلمينَ بالرّقص على القمر؟»

ضحكتْ وأصابعُها تتنقّلُ بحماس بين الحروف «لقد عثرت على حسابك صدفةً»، راقبت كلمة «يكتب» الظّاهرة تحتَ اسمه إلى أن وصلها «أها.. أعلمُ أعلمُ؛ صدفة مقصودة»

أجابت سريعًا تدْرأ التّهمة عن نفسها «لا، لم تكن مقصودة».

«حسنًا مقصودة أو لا، ما يهمّني أنها أسعدُ صدفةٍ حدثت في الحياة».

لم تردّ، فسألها عن عملها، استرسلتْ في الحديث عن نفسها، وكذلك فعل، طال حديثهما في تلك الليلة، وفي الليالي التالية، ثمّ التقيا وتوالتْ بعدها لقاءاتهما، أصبحَا صديقين مُقربين إلى أن تحوّلت هذه الصداقة إلى حب، لم يعترفْ أيٌّ منهما بحقيقة مشاعره لكنّ تصرفاتهما فعلت! أعينهما تبوح بأسرار الحبّ، إلى أن أتى يومُ ميلادها، وقرّر يعقوب أن تكون ذكرى هذا العام لا تُنسى، أرسلَ إليها موقعًا وطلبَ أن تلتقيه فيه، تعلم أنّه سيحضِّر مفاجأة للاحتفال بيوم ميلادها، ولم تكنْ تعلم أنّ مفاجأته أكبرُ من كونها حفلة صغيرة تضمّهماَ. وصلتْ أمامَ القارب- الذي أرسل إليها موقعَه-، ولم تجد أحدًا، فقط شموعٌ تُضيء المكان، لاحظتْ أنّ الشموع مُرتّبة على هيئةِ سهْم يشيرُ إلى سطح القارب، ابتسمتْ وصعدت بهدوءٍ لتجدَ السطح مُزيّنًا بالورود والشموع، وهناك خُوان صغير في المنتصفِ عليه كعكة، اتّسعت ابتسامتها ودنَتْ منه، فانطلق القاربُ ثمّ صدح عاليًا صوت أغنيتِها « Fly me to the moo»، تبعها صعود يعقوب إلى السطح، استقبلته بابتسامةِ حبّ، مدّ يده فأراحتْ كفّها في حضن كفّه، طوّق خصرَها وغابا في رقصةٍ طويلةٍ على سطح القمر، وبعدما انتهت الرّقصة ركعَ على ركبته وقدّم خاتمَ الزواج، وفي اليوم التالي خطبها من جدّها. مرّ عامٌ ونصف وها هُما سيُكلِّلا عشقَهما بالزواج بعَد أسبوعٍ واحد.

***

وصلتِ السّيارة أمام المبنى- الذي حلمتْ طيلة حياتها أن تكون جزءًا منه- تعبتَ كثيرًا لتصلَ إلى هذا الحلم، وها هي الآن اقتربتْ من حصاد ما زرعت من جهدٍ وصبر، هبطت من السيارة وتبعَها يعقوب، اقتربَ وطبعَ قُبلة على جبينها ثمّ تمنّى لها النجاح، تأملت الفراغَ بعينين تحجّر فيهما الدّمع، تذكرت كم كان جدُّها يُشدّ عضدها لتصل إلى هنا، تخيّلته اليومَ معها، ها هو طيفُه يضمّها إلى صدره بحنانٍ داعيًا لها بالنجاح في كلّ خطوة تخْطوها، قرأ يعقوب في عينيها ما يجولُ بخلدِها، فاجأها بضمّةٍ فتلاشى خوفها، ابتسمت له بامتنانٍ ثمّ دلفتِ المبنى مُسرعةً، سألتْ في الاستقبالِ عن مكان المقابلات فأوصلهاً أحدُ العاملين، سارتْ خلفه مُتأمّلةً المبنى بانبهار؛ فمِن الداخلِ يفوق روعتَه من الخارج بكثير، دلفَا من بابٍ شعرت بعدَه أنها دخلت خليّةَ نحل، كلٌّ على رأس عمله، أقمشة، إكسسوارات وتصاميم في كلّ مكان، هذاً الصخب لذيذٌ مُحبّبٌ إلى قلبها، لا تُصدق أنها الآنَ في أكبر وكالة أزياء في العالم، تنهّدت وقلبُها يدعو أن تُصبح اليوم نحلةً في هذه الخلية، أوصلَهاً الرجل لمكتبِ وجدتْ فيه الكثيرات ممّن أتينَ من أجل التقدم للوظيفة مثلها، رأتْ في عيونهن حلمَها، جلست متوترة، تُراقبهنّ بذَنَب عينيها وتنصت لأحاديثهنّ الجانبية، خبراتهن الواسعة دفعتها للشعور بالإحباط، فهل سيلتفتون لها وسط هذا العدد؟ شعرتْ بالاختناق فحلّت زرَّ قميصها وتحسّست جيدها، تذكرت القلادة فذهبت إلى المرْحاض، هذّبت الخصلاتِ التي تمرّدت على تسريحة شعرها، ثمّ أخرجت القلادة، آلم الحنينُ قلبها، سمعتْ في أذنها جدّها يبثّها الشجاعةَ كما كان يفعل كلّما أتته مُحبطة، مجرّد تذكّرِ كلماته وصوته الحاني أعادَ ثقتَها بنفسها. ارتدتِ القلادة، وما إن مسّ الحجرَ صدرَها انتفضَ جسدُها، اهتزّت الأرض من تحتها فتمسّكت بالحوض، تصلّبت عضلاتها وتشنّج جسدُها بعنف، شعرتْ بألم شديد يخترق فؤادها، شعرتْ أنّها تمرّ بسكرات الموت، ضغطتْ رأسها بقوّة، عساها تُوقفُ دوّامات

عقلها، أصبحت رئتاها لا تشبع بالأكسجين، فرفعت وتيرةَ التنفّس إلى أنْ أرهقت عضلات تنفّسها وبدأت تدخل في نوبة اختناق، وفجأة سكنَ كلّ شيء وعادت الأرضُ لثباتها كما عاد انتظامُ تنفّسها! تأملت وجهَها في المرآة فزعةً، فتحتِ الصّنبور وغمرت وجهها بالماء، دخلت فتاتان إلى المرحاض، تُعَدِّلان من زينتِهما، استمعتْ إلى حوارهما، إحداهما عملتْ في وكالة أزياء كبرى في باريس، والأخرى في إيطاليا، بالرغم من تعبها سنوات طوالًا إلّا أن خبرتَها أمام خبراتهنّ كفيلةٌ بطردها من المكان قبلَ أن تتمّ المقابلة، خرجت الفتاتان وزفرت بعنف، تمنّت لو تفهم ما يدورُ في رأس صاحبة هذا الصّرح، تمنّت لو تقرأ أفكارها وتعلم المعايير التي ستختارُ اليوم صاحبة الوظيفة وفقًا لها. ضحكتْ بسخرية من نفسها وهي تقول «تحتاجين لهذه المعْجزة فقط لتفوزي اليومَ يا زهرة!» عاد الصّداعُ يغزو رأسها، والأرض تميدُ بها، جحظتْ عيناها حينما رأت الحجرَ يُضيء، مسّته بخوف ولا تذكرُ ما حدث بعد ذلك! فتحتْ عينيها فوجدت نفسَها تفترش الأرض، وقفت بوهن مُستندةً إلى حوض الماء، نظرتْ لوجهها في المرآة ثمّ انزلقت كرتَا عينيها نحوَ الحجر بريبة، فوجدته كما كان لا ضوءَ ينبعث منه، انتبهتْ من ذهولها على دخول إحداهنّ إلى المرحاض، فاعتدلت في وقفتِها وبدأت تعدلُ هندامها، سمعت الفتاة تقول «ما كلّ هذا العدد! أسينتبهون لي وسط هذا الزحام!» إذًا ليست وحدَها الخائفة! أرادتْ أن تُطمئن الفتاة، فقالت «أنا أيضًا خائفة مثلك، وأتساءل كيف سينتبهونَ لي وسط هذا الزحام!» رمقتها الفتاةُ برعب لم تستطع زهرةُ تفسيره، ثمّ قطّبت الفتاةُ جبينها وخرجت مُسرعةً كمَنْ يهرب من شبح رآه للتو! رفعتْ زهرة حاجبيها ومطّت شفتيها استنكارًا، ثمّ خرجت منَ المرحاض تُتمتم بالفاتحة؛ كما علّمها جدُّها في صغرها كلّما شعرتْ بالخوف، وجدت مكانًا شاغرًا فجلست فيه، سمعتِ الجالسة جانبها تتحدّث لصديقتها عن خبراتها والدّوراتِ التدريبية التي حضرتها، فقرّرت

أن تُشغلَ نفسَها بمراجعة أوراقها بدلًا من الاستماع لأحاديثهنّ التي تزيد من توتّرها، لكنّ عينيْها اتّسعتا وهي تستمعُ لنفس الفتاة قائلةً «لا أحد هنا يعلم أنّ معظم هذه التّوصيات دفعت الكثيرَ للحصول عليها، ومستعدّة لأدفع أكثر، ما يهمني الآن هو أن أحصلَ على هذه الوظيفة بأيّ ثمن»، تعجّبت من اعترافها هكذا بكلّ سهولة أمام الجميع! وتعجّبت أكثرَ من عدم وجود ردّة فعلٍ من الجالسين بعدَ جُملتها! ظلّت تُحملقُ فيها إلى أن مرّت إحدى الموظّفات بالوكالة، سمعتها تضحك بسخرية قائلةً «حمقاوات، كلهنّ يتهافتْن على الوظيفة ولا يعلمنَ ما سيُلاقين مع العجوز الشّمطاء صاحبة هذا السجن» اتّسعت عيناها من جُملة الفتاة وتلْقيبها لصاحبة المكان بـ «العجوز الشمطاء» هكذا بدون وَرَع! توالت المفاجآتُ وهي تستمع لجملٍ واعترافاتٍ أكثر غرابة، نهضت مُسرعةً نحوَ الجالسة خلف المكتب لتسألَ عن دورها، سألتها المرأةُ بابتسامة ودودة عن اسمها ثمّ بدأتْ تفحصُ الاسماء، سمعت زهرة «عليّ أن أقترضَ المال من أجل الدراجة التي يريدها تيد، تعبتُ كثيرًا، لا يهمّ إن عملت لساعاتٍ أكثر، ما يهمّني هو أن أرى ابني سعيدًا، مازال هناك شهرٌ قبلَ يوم مولده أممم.. سيكون وقتًا كافيًا، أتمنى ذلك».. تأملتها بدهشة، المرأةُ صامتة مُبتسمة، ورغم ذلك تسمعها تشكو همّها، أخبرتها بدورها، فتركتها ورحلتْ مذهولة، وما زاد ذهولها هو تلك الأصوات المتداخلة التي بدأت تسمعها، كلما مرّ بجانبها شخصٌ سمعته يقول شيئًا رغمَ فمه المغلق! الأصوات تعلو وتتداخل أكثر، ضغطتْ صدغيها بسبّابتيها ولا فائدة، لا تفهمُ ما يدور حولها، ثمّ جحظت عينيها وهي تسأل نفسها بصدمةٍ «هل أصبحتُ أسمع الأفكار!»

❋❋❋

أعلمُ أنّ الكثير من الأسئلة تدورُ في
خلدك الآن، أتذكرُ لعبة «الاستغماية» حينما
كنتَ صغيرًا ؟ ستجدُ الإجابات فيها....

## (٣)
# زيارةٌ للماضي

جحظتْ عيناه وهو يتساءل.. «يا إلهي، هل أنا في قبر؟!». فُزِعَ قلبه حينما أدرك الإجابة، وما زادَ فزعه تلك اليدُ التي تقبضُ على مرفقه، حاول أن ينفضَها عنه لكنّها فاقت قُوّته، امتدّت أخرى وقيّدت مرفقَه الثاني، يسمع فحيحًا وأصوات بكاءٍ وكلمة «ساعدنا»، الفزعُ حبلٌ من مسدٍ يخنقُ جيده، صرخ بهلع فصمتتْ كلّ الأصوات عدا صوت جدّه- الذي بدا وكأنّه نائمٌ جانبه في القَبر- ويهمسُ في أذنه «احفظِ الأمانة التي سأتركها لك يومًا ما» فتح عينيه ليستوعب أنّ ما رآه كان كابوسًا، العرق يتصبّب من جبينه، صدره يعلو ويهبط وجسدُه يرتجف، يتأمّل غرفة جدّه بفزع ويهمس بحروفٍ متقطعة وصوتٍ مُتهدج «الـ الحمدُ.. الحمدُ لله» ولمّا فُزِّعَ عن قلبه، نهضَ محاولًا أن يتحاملَ على ساقيه الواهنتين، واتجه نحوَ المطبخ، ملأ كوبًا بالماءِ وشربَه حتّى الثّمالة، ثمّ ملأ آخرَ، وكان يرتشفُ منه في طريق العودة للغرفة، برتابةٍ كان يتحرّكُ عندما لمحَ الورقة المطوية- التي سقطت منه وهو يتفحّص المخطوطات-، وضعَ الكوبَ على طاولةٍ بالصالة، ثمّ اقترب من الورقة، انحنى قليلًا والتقطها، فتحَها ليجدها مكتوبةً بالعربية، فتهلّلت أساريره، وبدأ يقرأ ما خطّه جدُّه في الورقة:

«شمس»

معنى أنّك تقرأ هذه الكلمات الآنَ أنني لستُ في هذه الدنيا، حتى وإن لم أكنْ فالحمدُ لله أنّك طرقت بابي، هنيئًا لحوائطِ البيت برؤياك، الآن القلادةُ

لك، اعلمْ أنّ حياتك بعدما تمسّ هذا الحجر ستتغير تمامًا، فاجعله تغييرًا للأفضل يا بني، احذر الحجرَ وأعِدْه إلى موطنه؛ فإنّه سيغيّرك، ستخضعُ للاختبار كما فعلَ بنا، إيّاك أن تفشل كما فشلنا، إيّاك والطمع فإنّهُ يُهلكك ويُعجّل بالنهاية، أعلمُ أنّ الكثير من الأسئلة تدورُ في خلدك الآن، أتذكر لعبة «الاستغماية» حينما كنتَ صغيرًا ؟ ستجدُ الإجابات فيها...

جدُّك المُحب: شمس الدين درغام»

أعادَ القراءة مرّة أخرى، وأيضًا لم يجد إجاباتِ أسئلته! ظلّ مُحدقًا في جملة «اعلم أنّ حياتَك بعدما تمسّ هذا الحجر ستتغير تمامًا». رفعَ حاجبيه استنكارًا ثمّ عقدهما بلا فهم! مازالت تفاصيلُ الكابوس تنشر الضيقَ والرّعب في صدره، أراد أن يرحَلَ من البيت بسرعة، ليس بسبب الكابوس فقط؛ بل لأنّه على بُعد شهرٍ من خسارة وظيفته، وعليه أن يفعلَ شيئًا، بدّل ملابسه، وجدَ حقيبة سفرٍ فارغة فوق خزانة جدّه فصعد على كرسيّ بالغرفة وأنزلها، حزمَ فيها الحقيبةً القماشية وعباءةَ جدّه، همّ أن يخلع القلادة، فمنعته ذكرى جدّه، دسّها داخلَ قميصه وأغلق عليها زرّه، حملَ الحقيبة ووقف عند باب الخروج هُنيهةً، وقبلَ أن يُغلقه رمى نظرةً خاطفة على البيت، ثمّ بدأ طريقَ العودة إلى القاهرة.

منذُ أن عاد إلى شقته وهو يفكّ رموزَ المخطوطات، يُحاول جاهدًا لكنّ لغتها تأبى أن تفصحَ عن مكنونها له، اتّصل صديقُه أمجد يريدُ مساعدته في تغطية جريمة قتلٍ حدثت في مكانٍ قريبٍ من بيته، أعادَ المخطوطات المبعثرة حوله للحقيبة، وضعَ الكاميرا في حقيبته ثمّ انطلقَ نحو الموقع، وصلَ قبل أمجد، رفضتِ الشرطة دخولَه لمسرح الجريمة حتى وصل صديقُه وجذبه بعيدًا عنهم، ثمّ قال هامسًا:

– إذا أردتَ أن تعمل في هذا القسم عليك أن تتعلّم كيف تخطف الخبر بكلّ الطرق حتى غير المشروعة، أتظنّ أنهم سيدخلوننا لمسرح جريمة قتلِ زوجة رجل أعمال مرموق مثله؟!

سألَ حائرًا:

– وكيف سنُغطّي الخبر؟!

تجلّى التأفُّف في حروفه وهو يقول:

– تعالَ معي، سأخبرك كيف سنفعل ذلك.

سارَ معه نحو الحديقة الخلفية، راقب أمجد الطريقَ ثمّ طرق بابًا خشبيًّا قديمًا، فتح عجوزٌ يرتدي جلبابًا باليًا، دسّ أمجد المالَ في كفّه فأدخلهما وأغلقَ الباب بإحكامٍ، راقب شمس ما يحدثُ مذهولًا، انتشله صديقُه من ذهوله هامسًا:

– سأستجوبُ ذلك البواب لأعرف منه تفاصيل الحادث، وأنت عليك أن تلتقط صورًا للجثّة ومسرح الجريمة، حاول أن تلتقطَ صورًا قريبة قدرَ الإمكان دون أن يُلاحظك أحد، وإذا أُمسك بك لا تنسَ تغييرَ بطاقة الذّاكرة بواحدة فارغة قبل أن يأخذوا الكاميرا.

لاحظَ بقايا ذهولِ شمس، فضغط حروفَه قائلًا:

– هيّا بسرعة قبل أن يصلَ فريقُ البحث الجنائي، لا وقت لدينا.

تخلّص شمس من ذهوله وبدأ يُجهّز عدّته، بدَا مُرتبكًا وهو يقتربُ من مسرح الجريمة مُختبئًا، التقط صورتين لكنّهما لم تكونَا واضحتين؛ فقرّر المغامرة والاقتراب أكثر، حينما لمحَ الجثة سرتْ قشعريرة أسفلَ عنقه، رفع

الكاميرا فباغته فحيحٌ في أذنه يهتف «ساعدنا»، ذاتُ الصوت الذي سمعَه في حلمه، ارتجفَ جسدُه وتوتّرت ملامحه، طرد توتّرَه في زفرة هادئة، وبدأ يلتقطُ الصور من زاويته، إلى هنا انتهتْ مهمّته، الصور التي التقطها كانت كافية، إلاّ أنّ شعورًا ما يجذبُه نحو الجثة، شعورٌ لا يعلم ماهيته! انصاعَ له واقترب أكثر، راقبَ انشغالَ رجُلي الشرطة الموجودين بالداخل، وابتعادهما عن الجثة؛ واقترب، كانت مُغطّاة بملاءة تلوّثت بدمائها، مازال الشعورُ يجذبه، دفعَه لرفع الملاءة ففعل، رأى وجهها، شعورٌ ألحّ عليه أن يمسّ رأسها، وبمجرّد لمسه لها كأنّه انسلّ من مكانه لغرفة نوم لم يرها من قبْل! تفاجأ عندما رأى القتيلةَ حيّة! أرادَ أن يختبئ لكنّه أدرك أنّها لا تُلاحظ وجوده، وكأنّه شبحٌ! لا يفهم شيئًا مما يحدّث، تتحدّث في الهاتف بعصبيةٍ وتبكي:

- أستتركني بعدَ كلّ ما فعلتُه لأجلك؟! لقد طلبتُ الطّلاقَ كما اتفقنا، أريد أن نُربّي طفلنَا سويًّا.

سيطرَ الغضبُ على ملامحها:

- ماااذا! أجُننت؟ ألَا تعلم أنّ هذا ما حلمتُ به طيلة حياتي؟ أتدري كم تحمّلتُ هذا العقيمَ المتعجرف؟ أتدري كمْ عمري الآن؟ لم تعدْ لديّ فرصٌ للإنجاب، لن أجهض الجنينَ، وافعلْ ما يحلو لك.

أغلقتِ الهاتف ثمّ ألقتْ به على الفراش، كانت تبكي بحرقةٍ عندما وقعت مزهرية في الطّابق السفلي، انتبهتْ للصّوت بريبة، التقطتِ الهاتف، ومرّت من بين جسده كأنّه طيفٌ، خرجتْ من الغرفة على أطراف أصابعها، سمعتْ خطوات أقدامٍ، فطلبت رقمًا في الهاتف، وسألت بصوتٍ خافت:

- أين أنت؟.. هل هذا وقته!.. عدْ بسرعة، أشعرُ أنّ لصًّا في البيت.

لم تجدْ حولها شيئًا تُدافع به عن نفسها سوى مزهريّة، التقطتها ثمّ هبطت الدرج بخطواتٍ وجِلة، ورفعتِ المزهريّة تحسُّبًا للهجوم، باغتَها مُلثّمٌ من الخلف فسقطتِ المزهرية، حاولت أنْ تصرخ لكنّه طوّق جيدَها بساعِده وخنق صوتها، يراقبُ شمس المشهدَ كأنّه معهم، تُرفرفُ بيديها، انتشرتِ الزّرقة في وجهها، فأسرع نحوهما يحاول مُساعدتها، كلما قرّب يديه تنفذُ من بينهما، كرّر مُحاولاته ولكنْ بدون جدوى، شدّت اللثامَ الذي يُغطّي وجه الرّجل، فرأى شمس وجهَه بوضوح، أخرج الرجل مدْيةً وطعنها عدّة طعنات متتالية، ثمّ تركَها تلفظ أنفاسَها ألأخيرة على الأرض، أخذ يرقبُ القتيلة حتى سكنتْ حركاتها، تأكّد من موتِها، ثمّ أخرج هاتفًا من جيب بنطاله وقال:

- فتحي بيك، تعازينَا لك.

كانتْ هذه الجملة آخرَ ما سمعه في حلمه، استفاقَ وصدرُه ينْهَت، يُحاول التقاط أنفاسه، فتحَ عينيه فوجدَ رجُلَا الشرطة فوقَ رأسه، يُمطرانه بوابلٍ من الأسئلةِ- التي لم يسمع أيًّا منها-،كان مشغولًا بما رآه وما حدثَ للتّوً، استطاع أمجد إنقاذَه، خرجَا من نفس الباب الخلفي ثمّ ركبَا السيّارة، تنفّس أمجد الصعداء خلفَ المقْود وقال:

- ماذا دهاكَ يا شمس؟ أهذا وقته! تفقد وعيَك في مسرح الجريمة يا رجل!

لم يردّ، فتابع:

- حمدًا لله أنّ «عاكف» استطاع مساعدتنا.

التقطَ الحاسوب من الأريكة الخلفية، فتحَه وأخرج بطاقة ذاكرة من جيبه وهو يقول بانتصارٍ:

- استطعتُ سحبَ الكارت قبل أن يأخذوا الكاميرا.

شاهدَ الصور، ثمّ قال مبتسمًا:

– راااائع يا صديقي، الصورُ أوضح مما توقعت.

لاحظَ شخوص عيني شمس وصمتَه، فقال:

– شمس، هل أنت بخير؟!

لم يردّ، فهزّه، انتبه شمس له وسأل:

– ماذا قال البواب؟

أجاب أمجد:

– أممم.. لم يكن موجودًا، يقول إنّ القتيلة اتّصلت به تخبره بوجودِ لصّ في البيت، لذا اتّصل بالشرطة وأسرعَ في العودة، لكنّهم وجدوها جثة.

تذكّر ما رآه في الحلم، تحديدًا الاتصال الذي أجرته حينما سمعت وقعَ الأقدامِ في الأسفل، اتّسعت عيناه ثمّ سأل:

– ما اسمُ رجل الأعمال، أقصد زوجها؟

أجاب:

– فتحي الشنّاوي.

زادَ اتّساعُ عينيه وهو يُتمتم «إذًا علمَ زوجها واستأجرَ مَن يقتلها!» لم يسمع أمجد جملته جيدًا فسأل:

– ماذا تقول؟

لم يدرِ ماذا يخبره؟! هو نفسُه لا يعلم ما الذي حدثَ له حينما لمس الجثة؟! آثر الصمتَ حتى يجد تفسيرًا فقال:

– أنا متعَبٌ من السفر، من فضلك أعدْني إلى البيت.

ظلّ حبيسَ شقته يومين، لا يردّ على أحدٍ، ولا يفتحُ لأحد، إمّا يُحاول فكّ رموز المخطوطات أو يهربُ للنوم، أنهكه التفكيرُ فخرج يسير في الشوارع بلا هدف، بينما كان يمضي في طريقه سمع صوتَ توقُّف سيارةٍ، لصريخ عجلاتها دويٌّ مزعجٌ ثمّ صرخات نِسوة، التفتَ نحو الصوت فوجدَ المارّة يتوافدون على جسدٍ ممدّدٍ على الأرض، اقترب منهم يرقبُ في صمتٍ، ويستمع لتعليقات الواقفين:

– لا حول ولا قوة إلّا بالله، مات الرجل!

ويردّ آخر:

– حسبُنا الله ونعم الوكيل، صدمَه وهرب، لكن كيف سيفلتُ من عقاب الله؟!

لمعَ الحجرُ فلمعت في ذهنه فكرة أنْ يختبره الآن، اقتربَ من الجثة ولمسها في وجل فاختفى الواقفون، رأى المصدومَ بالسيارة حيًّا يقفُ على الرصيف ويستعدُّ لعبور الطريق، ولمّا تأكد من خلوِّه مرّ فإذا بسيارةٍ مسرعة تصدمه، رأى شمس السيارةَ بوضوح وهي تقترب من الرجل، أراد أن يدفعَه بعيدًا عنها، لكنّه هذه المرّة أيضًا كان مجرّدَ متفرج لا حيلة له! لمح الرّقمَ المدوّن على لوحة السيارة، ظلّ يردّده إلى أنِ اختفت السيارة عن ناظريه وثقلت أنفاسُه، سقط أرضًا جانب الجثة، فتح عينيه فوجدَ الواقفين يحاولون إفاقته، حينما بدأ التقاطَ أنفاسه أسرع ودوّن في ملاحظةٍ على هاتفه مواصفات السيارة التي رآها ورقم لوحتِها، ولمّا حضر رجال الشرطة أبلغهم بكلّ ما دوّنه، تعجّبوا من دقة معلوماته؛ فبحسبِ أقوال الشهود السيارة اختفتْ في لمح البصر! فبرّر قائلًا:

– لقد رأيتها قبلَ أن تصدمه وتختفي، وبعدَها انشغل الناسُ بالجثة وأنا كنت مشغولًا بحفظ رقم اللوحة.

فقال الشرطي:

– حسنًا يا أستاذ..؟

أسرع قائلًا:

– شمس، شمس الدين.

فتابعَ الشرطي حديثه:

– حسنًا أستاذ شمس الدين، سنحتاجك معنا في قسم الشرطة.

انتظرَ معهم وقد بلغ منه التوتّر ما بلغَه من أهل المقتول، وأخذ يرقبُ حياةً ستنقلبُ إذا ما صحّت رؤياه، جاءهُ نبأ القبض على صاحب السيارة، الذي لم يكن يتوقّع أن يرى أحدٌ رقمَ لوحته لسرعة هروبه، في البداية أنكرَ.. ولكنْ كاميرا أحد المحالّ الموجودة في المنطقة أثبتتْ صحّة كلام شمس، فتمّ القبضُ عليه، فرح شمس بمساعدته لأهل الرجل، وكان أشدّ فرحًا بتلك المعجزة التي يرتديها في جيدِه، خطرَ بباله ما رآه في قضية زوجة فتحي الشنّاوي، قرّر أن يعود في الصباح للجريدة ويطلب من عاكف أن يتولى التحقيقات في هذه القضية، ابتسمَ وهو يرى اسمه لامعًا في سماء الصّحافة، تحدّث لنفسه «أيعقل أن يكون حلمي قد تحقّق؟ يا تُرى ما سرُّ هذا الحجر؟!»

❋❋❋

مِن المفترض أن يخافَ الناسُ من
المجهول، لكنّ الجهل يُصبح نعمةً عندما
تكون المعرفة مُخيفة..

لوريل هاملتون

## (٤)
# المُسْتمعة

خرجتْ من مقر الشركة عاجزة عن النطق، ينتابها عدمُ تصديق أنّها نالت الوظيفة بهذه السرعة! وعقلُها لا يستوعب الطريقة التي حصلتْ بها على الوظيفة، أخذت تسترجعُ كيف كانتْ على اطّلاع بأفكارِ المديرة، وكيف طوّعتها لجعلها تحْظى بالوظيفة، انتبهتْ إلى الأفكار التي مازالت تسمعُها مِن حولها، وتجهلُ كيف حدث ذلك؟! اتصل يعقوب يطمئنّ عليها، زفّت إليه خبرَ قبولها وآثرتْ أن تقصّ عليه ما يحدُث لها حينما تراه، فدعته على العشاء، عادتْ للبيت تُحاول تناسي ما حدثَ اليوم، شغلت نفسها بتجهيز العشاء. جنّ الليلُ فأعدّت الطعام وأشعلت الشّموع، ثمّ ارتدت فستانًا أنيقًا وصفّفت شعرها، وقفتْ أمام المرآة تنظرُ للقلادة، ثمّ سألتْ نفسها «تُرى هل ما حدثَ اليوم يرتبط بارتدائها؟» سمعت جرسَ الباب فعدلتْ هندامها ثمّ فتحت واستقبلتْه بابتسامةٍ مُشرقة، ظلّ يتأمّلها باسماً في صمت، إلاّ أنها سمعت ما يجولُ في خلده «يا لحظّي الرائع بفاتنتي!» اتسعت ابتسامتُها، جذبها من يدِها هامسًا في أذنها «ما كلّ هذا الجمال! رفقًا بقلبي يا فاتنتي» تورّدت وجنتاها، ثمّ أفلتْ جسدها من قبضتِه، وسحبته للداخل قائلةً «لقد أعددتُ أكلتَك المفضّلة».

تناولَا عشاءهما ثمّ جلسَا يحتسيان عصيرَ التوت المُفضّل لهما، سألها عن المقابلة فقصّت ما حدثَ عدا جزءِ سماعها للأفكار، هنّأها وكانتْ على وشك أن تُفجّر المفاجأة لولا أن وصلتْه رسالة، تابعت انعقادَ حاجبيه،

كانت ستسأله عن المُرسِل لولا أنْ سمعته يقول بينه وبينَ نفسه «أهذا وقتُه يا غالية!» انتبهتْ للاسم ثمّ سمعت وهو ينقرُ أزرار الهاتف «حبيبتي أنا الآنَ في العمل سأُحادثك بعد ساعتين»، تمتمت بدهشةٍ «حبيبتي!» أخته الوحيدة اسمها «آمنة»، كما أنّ اسم والدته «رجاء»، فمَن تكون غالية التي يدعوها بحبيبتي؟!» آثرت تأجيلَ إخباره بموهبتها الجديدة؛ ستعرف أولًا ما يُخفيه عنها، ترك الهاتفَ وعاد ينظر إليها باسمًا يسأل:

– ما المفاجأةُ التي كنتِ ستُخبريني بها؟

حاولتْ أن تُخفي وجومَها بابتسامة وهي تخترع سببًا مُزيّفًا كابتسامتها:

– أممم.. لقد قابلتُ رجلًا يُشبه جدّي اليوم فشعرتُ لوهلةٍ أنّ روحه حضرت لتكون جانبي.

ابتسمَ بحنوّ، ثمّ ربّت على كفّها داعيًا له بالرّحمة، تُحاولُ أن تجد طريقةً تعرف بها ما يُخفيه، اهتدتْ إلى فكرة، التقطت زجاجةَ العصير، قلبتها على الطاولة، وقالت:

– تعالَ لنلعب الصّراحة؛ لم نتسامرْ منذ وقتٍ طويل.

أدارتِ الزجاجة فتوقّفت فوّهتها تجاهها، سألها سؤالًا عاديًّا، أجابته وفي المرة التاليةِ حانَ دورُها لتسأل فرمقتْه بنظرةٍ ثاقبة وسألت:

– هل تُخفي عنّي شيئًا؟

ظهرَ الارتباكُ على وجهه، أخفاه بابتسامةٍ متوتّرة وهو يقول:

–بالطّبع لا حبيبتي، أنا لا أُخفي عنكِ شيئًا.

همّ أن يُدير الزجاجةَ فطلبتْ منه الانتظارَ لتردّ على رسالة صديقتها، لم تكن هناك رسائل، لكنّها ألقتْ حجرًا أربكَ سكونَ أفكاره، وأرادت أن

تستمع لتخبُّطِها بعد سؤالها، وبدَا لها نجاحُ ذلك حينما سمعته يقول «آهٍ لو تعلمين كم أعشقكِ يا زهرة! أخشى أنْ تعرفي سرّي؛ فتظْلميني بالهجر، فوالله لم أحبّ امرأةً كما أحببتك، لكنّني أعرفكِ حقّ المعرفة مهْما أخبرتكِ أنّ زواجي من غالية كنتُ مُجبرًا عليه لن تُصدّقيني أو تغفرين!»، حينما سمعتْ «زواجي من غالية» سقطَ الهاتف من يدِها، وتفرّسته بصدمةٍ فسأل بقلقٍ:

– حبيبتي، هل أنتِ بخيرٍ؟

عجزتْ عن النطق فأشارت بإيماءة من رأسها ثمّ قالت:

– أيمكنُ أن تتفحّص صنبور المطبخ، الذي أخبرتك أنّه يحتاج للتّصليح، حتى أُنهي مراسلة صديقتي؟

قال باسماً:

– حسنًا حبيبتي، هل مازالتْ حقيبة المعدات في أوّل دولاب؟

أومأت فنهضَ نحو المطبخ، التقطتْ هاتفه، تحفظ رقمَه السّري، أعطاه لها بدون خوفٍ؛ مُطمئنًّا أنّها لن تتجسّس عليه كما تفعلُ باقي النساء مع رجالهن، لكنّها تحتاجُ هذه المرّة لأنْ تكون مثلهن، فتحتِ الهاتف فوجدتْ رسالة لم يرها بعدُ من اسم «غالي»، فتحت المحادثة، يبدو أنّه كان يحذف الرسائل بينهما باستمرار؛ فلم تجدْ سوى رسالة بها «حبيبي أنتَ هنا؟ مريم تُريدُ محادثتك؟» تمتمت رافعةً حاجبيها «هناك مريم أيضاً!» ثمّ قرأت الرّسالة التي سمعته يُحدّث نفسه بها، وبعدَها رسالة صوتية، نظرت تجاهه فوجدته مُنهمكًا في التّصليح، أوصلتْ سمّاعتها بهاتفه وفتحتِ المقطع لتجدَ صوتَ امرأة وطفلة تبكي جانبها:

«حسنًا يا مريم سيتحدّث إليكِ بابا بعدَ ساعتين، توقّفي عن البكاء، وتحدّثي إليه هيّا، يُريد سماعك»

«بابا!!» جحظتْ عيناها، وانشقّ قلبها وهي تسمع صوتَ الطفلة الباكية تقول:

«لقد اشتقتُ إليك يا أبي، ألم تعدْني أنّك ستعود هذا الأسبوع ومعك الدّمية التي طلبتها؟ ماما، لماذا لا يردّ أبي؟!» ضحكتِ المرأة ثمّ قالت «سيسمعُ حبيبتي ثمّ يردّ عليكِ لا تقلقي، حبيبي، اشتقنا إليك، ننتظرُك، فلتكنْ بخير لأجلنا، حفظك اللهُ من كلّ شر».

رفعَ صوته من المطبخ يسألها عن شيءٍ، لم تنتبه له، ناداها فلم تردّ، ذهب إليها فوجدها تسمعُ شيئًا في هاتفه بعينين جاحظتين كأنّهما تحوّلتا لجمرتين مُسْتعرتين، دبّ الرعب في أوصاله، لأوّل مرّة تُفتش في هاتفه، يخشى أن تكونَ قد رأت رسالة غالية، ملامحها تخبره أنّ شكّه في محلّه، اقترب وجلسَ جانبها، رمقته بغضب ثمّ ألقتِ الهاتف في وجهه وركضتْ نحو غرفتها، تبعَها فصكّت الباب في وجهه، ثمّ أوصدتْه بالمفتاح، طرقه برفقٍ وهو يسمعُ بكاءها قائلًا:

- حبيبتي، أرجوكِ اسمعيني.

صرختْ عاليًا:

- ألديْك أكاذيبُ أخرى يا أبا مريم؟

فقال برجاءٍ:

- الأمرُ ليس كما تظنّين، أرجوكِ أعطني فرصة لأشرح لكِ.

قالت بغضبٍ:

– لا أريد رؤيتك ولا سماعَ صوتك، اخرجْ من هنا، ولا تُحاول أن تظهر أمامي مرة أخرى؛ فأنا لا أعلمُ ما سأفعله إذا رأيت وجهَك أيها الكاذب الأحمق.

عادتْ لصراخها:

– اخرجْ من بيتي الآن.

ردّ بتصميمٍ:

– لنْ أخرجَ قبل أن تفتحي الباب وتسمعيني.

كانتْ كلّما غضبت تحتاج لحضنِه لتهدأ، بعد أن فقدتْ كلّ أهلها ولم يعدْ لها سواه، هي الآن هشّة لا تقوَى على المواجهة، خشيتْ أن تضعف، تأكّدت من أن الباب موصدٌ ورفضتِ الخروج، ظلّ منتظرًا لنصفِ ساعة جانبَ الباب، ثمّ فقد الأملَ قائلًا:

– حسنًا حبيبتي، سأتركِك الآن وسنتحدث لاحقًا.

سمعته وهو يرحلُ ويُغلق البابَ خلفه، كانت فرحةً بوظيفتها الجديدة، وبالهبة التي امتلكتها ولا تعلمُ الآن هل هي بالفعل نعمة أم نقمة ستقضي عليها؟لم تنمْ تلك الليلة، وكيف تغمضُ عينيها بينما يمتليءُ جوفُها بالألم! تشعر أنّ روحَها في لحظةٍ أصبحت مُهترئة، تحتاج أُذُنًا تسمعها لتتحرّر حروفها من أسْرها، تحتاجُ لأن تصرخَ لكنّ الألم يكتم أنفاسها، تشعر أنّها ستموتُ وحيدةً من فرْط الكتمان وافتقادِ معاني الأمان، ظنّته مختلفًا عن باقي الرجال، وضعتْ فيه وحده كلّ ثقتها وآمالها فقتلَ كلّ أملٍ حيٍّ فيها، وترسّخت لديها قناعة أن الغدرَ سمة الرجال، وأنّ الوحيد الذي لم يخذلها يومًا هو جدّها،

لكن أين هو؟ أصعب أنواع الاشتياق هو شوقُك المحموم لمن تحتَ التراب، واحتياجك لضمّتهم ليهدأ فَزع قلبك، ولّما لم تجدْ مَن يضُمّها أحاطت جسدَها بذراعيها، أخذ الحزنُ ينهش قلبها طوال الليل طاردًا النومَ من عينيها إلى أنْ حان موعدُ العمل، بدّلت ملابسها وأخفت آثار السهر ببعض المساحيق ثمّ رحلت، حاولتْ أن تُخرج يعقوب من رأسها وتُضمّد جراح قَلبها، صمدتْ إلى انتهاء اليوم، وجدته ينتظرها عندَ سيارتها في المرآب، حاولت أن تُسيطر على توتّرها، ابتسمت بسخرية ثمّ قالت وهي تقف أمامه:

– جيدٌ أنك أتيتَ لتأخذ خاتمك.

أخرجتْه من حقيبتها ومدّته نحوه،لم يمدّ يدَه، فاقتربت خطوةً وأسقطته في جيب قميصه وهي تقول:

– أظنّني أخبرتك بأنّني لا أريد رؤية وجهك ثانيةً، أليس كذلك؟ من فضلك ارحل بهدوءٍ قبلَ أن أستدعي الشرطة.

قالتْها وهي تفتح بابَ سيارتها، فقال:

– غالية ابنةُ عمّي، زوّجني أبي منها مُجبرًا لأنّ أبويها توفّيَا ولم يعدْ لها أحد سوانا.

سخرتْ من قوله بضحكةٍ ثمّ قالت:

– أجل، تزوّجتها مُجبرًا فأجبرتْك على إنجاب مريم، أليس كذلك؟

قال بصوتٍ مُتحشرجٍ:

– أنالم أحبّ سواكِ يا زهرة، تعلّمتُ معكِ كيف يكون الحب، أقسم أنني لم أكذب في مشاعري.

صرختْ في وجهه «لكنّك كذبت»، معترضًا صاح «لم أكذب، أنا فقط أخفيتُ سرّي مؤقتًا».

جلجتْ ضحكتها الساخرة ثمّ قالت:

- أجل. أجل.. أخفيتَه حتى أقعَ في الفخ، وأصبح أسيرة قفصك.

أسرَ الغضبُ عينيها، وملامحَ وجهها وهي تُكمل:

- أنْ تخفي أمرًا هامًّا لهذا الحدّ فهو يعادل الكذب، بل أبشع.

منذُ أن بدأ حديثهما وهي تتجنّبُ النظرَ في عينيه، لم تفلح هذه المرة، رأت الذكرياتِ تتجمّعُ واحدةً تلو الأخرى في مآقيه، فحبستْ دموعها مُغمضةً عينيها، وقالت بصوتٍ مُتحشرجٍ يُنذِرُ ببكاءٍ وشيك:

-كيف كنتَ تنظرُ في عيني يا هذا وأنتَ تُخفي عني زواجَك وأبوّتك؟ كيف كنت تُغدقني بكلمات الحبّ المستهلكة هذه؟ كيف هنت؟!

سالتْ دموعه، واقترب منها قائلًا:

- حبيبـ

عادَ الغضبُ يشتعلُ في عينيها وهي تُقاطعُ حروفه قبلَ أن تُكمل الكلمة:

- صه، انتهى الأمر،لم يعدْ هذا اللقب يخصّني، عدْ إلى زوجتك وابنتك؛ هما أوْلى بك وبمشاعرك، أمّا عنّي فقد أصبح اجتماعُنا مستحيلًا.

ركبتِ السيارة وانطلقتْ بأقصى سرعة، بعدما ابتعدت عن المكان وقفت على جانبَ الطّريق ثمّ بكت، وعلَا نحيبُها، كانت ترى في يعقوب أهلَها،

والآن تفقده وتتجرّع مرارة اليُتم من جديد، انتبهتْ من شجونها إلى أفكار المارّة التي تسمعها، فتذكرت هبتها الغريبة- التي تجهلُ كُنهها- إلى لحظتِها تلك! لمع الحجرُ في المرآة فتذكرت غرابة أطوار جدّها، الطبيب الذي ذاع صيتُه في أوروبا، لم يكن عاديًّا كما لم تكن هذه القلادة تفارقه، راقبت المارّين حولها، وقرّرت أن تستكشف سرَّ القلادة الآن، خلعتها فشعرت بألمٍ شديدٍ في قلبها، تركتها في السيارة وهبطت تُراقبُ الناس، كانت طبيعية؛ لمْ تسمع أيًّا من أفكارهم، عادتْ للقلادة، ارتدتها فتكرّر الألم، تحمّلته إلى أنْ هدأت فعادت تسمع الأفكار مِن جديد، اندهشت وهي تتساءل «إذًا هي القلادة، لكنْ ما سرُّها؟!» قرّرت أن تنتظر إجازتها؛ لتسافرَ إلى بيت جدّها القديم بحثًا عن الإجابات.

***

تركتْ شقّتها، واستأجرت بيتًا بالقربِ من عملها، غيّرت رقمَ هاتفها ومحتْ كلّ ذكرى كانت تربطُها بيعقوب، كما غيّرت حساباتها على مواقع التواصل الاجتماعي، شغلت حياتَها بعملها وتحقيق حلمِها فقط. حقّقت نجاحًا كبيرًا بالرغم من عملها في هذا المجال لأوّل مرّة، تتجلّى موهبتها وتدعمها ما للحجَر من قدرة، فأخذت تُطلقُ صيحاتٍ للموضة خلقتها من أفكار النساء، التي أصبحت تستمعُ إليها، ومرّ الشهر تلو الآخر، انقضى عامٌ وسرعانَ ما لمع اسمها في سماء الأزياء، تولّت منصبًا مرموقًا في الوكالة، وأصبحت الضيف الدّائم في برامج الأزياء والموضة، عرضت أكبرُ الوكالات أن تنضمّ إليها، لكنّها قابلت عروضَهم بالرفض، أرادت أن تستمرّ في الوكالة الحالية حتى تكتسب الخبرة الكافية لصنع ماركتها الخاصّة، قضتْ أولى إجازاتها في ولاية «نبراسكا» في بيت جدّها القديم، وصلت إلى البيت،

قبّلت ذكرياتُ طفولتها عينيها فامتلئتَا بالدموع، تشمّ رائحة جدّها في حديقة البيت، تسمع صوتَه يناديها وهو يسقي أشجاره، كم ذبلتْ أشجاره وزهوره حزنًا على رحيله! كما ذبلت روحُها الآن وهي تجابه رياحَ الذكريات وحيدة، فتحت الباب فداعبتِ الذكريات قلبها، لمحتِ المدفأة فارتجفَ جسدُها بزمهرير من شتاء الذكريات، حينما كانَا يجلسان كلّ ليلة جانب المدفأة، تستمعُ إليه يقصّ حكايات الجدة زهرة، هربت مِن الذكريات إلى غرفة مكتبه، مُرتبةٌ كما تركَها، انتبهت إلى أنّها لم تدخلها منذ وفاته، لم تجرؤ على الدّخول وهو ليس فيها، اقشعرّ بدنها، لمحت مفكّرته على المكتب وجانبها ذاكرةٌ وميضية، اقتربتْ والتقطت الذاكرة عاقدةً حاجبيها، شغّلت الشاشة المُعلقة في الغرفة وأوصلتِ الذاكرة بها، وجدت مقطعًا مصوّرًا لجدّها، ضغطت عليه بقلبٍ مُرتجف، ملأت صورتُه الشاشة جالسًا خلفَ مكتبه، حينما نظرت إلى وجههِ علمتْ أنّه قام بتسجيل هذا المقطع في فترة مرضه، قُبيل وفاته، مرّرت أناملها على صورته بابتسامةٍ مريرة، ثمّ جَلست تستمع لما يقول:

«صغيرتي وزهرتي، يؤسفني أنكِ الآن تُقاسين ألمَ الفراق ولا أستطيع التخفيف عنكِ لكنّها إرادةُ الله يا حُلوتي، صوّرتُ هذا المقطع لأنّني أعلم حيرتك، أعلم أن الكثير من الأسئلة تدورُ في رأسك، أظنّكِ الآن ترتدينَ القلادة وقد منحتْكِ القوة التي طلبتها منها، ولا تعرفينَ كيف حدث ذلك، كما لم نكنْ نعرف حينما عثرنا على الحجر!»

تحشرجَ صوته وأخذَ يسعُل بقوةٍ، رفعَ كوبَ ماءٍ كان أمامه، ورشف منه رشفة، شهق وزفرَ بهدوءٍ إلى أنِ انتظمت أنفاسه مرة أخرى ثمّ تابع:

«كُنّا أربعة، أبناء عمومةٍ، لكنّنا كنّا أكثر من الإخوة؛ شمس وأنا وعارف وكامل، تربّينا على حكايات الجدّة زهرة، التي اخترتُ أن أُسميكِ على

اسمها، الكلّ ظنّ حكاياتها أساطيرَ إلّا نحن الأربعة، كلّما سمعنا حكاية بدأنا مغامرةً جديدة في البحث عن المكان وأبطال الحكاية، بعضُ الحكايات كانت حقيقية، وبعضها لم نجدْها كما قصتها الجدّة، إلّا حكاية واحدة دائمًا تُقسمُ على صدقِها، وأنّها شاهدة على تفاصيلها معَ زوجها- رحمه الله- إنّها حكاية «حجَر بيرو» «الحجرُ الأزرق»، بالطّبع لم يُصدقها أحد سوانا، وفي ليلةٍ قررنا أن تكونَ حكاية الحجر آخرَ مغامراتنا، تسلّلنا إلى الجبل ولم نعلم ما ينتظرنا، لم نكن نعلم أنّ هذه المغامرة ستقلب حياتَنا رأسًا على عقب، لم نكن نعلم أنّها سـ.. ستُفرّقنا»

توقّف عن الكلام وأجهشَ في البكاء، رقّ قلبها وسالتْ دموعها، ربّتت على صورته في الشاشة، ودّت لو تخترقها وتضمّه، عادَ لسعاله، ولمّا هدأ تابع:

«أخبرتنا الجدّة زهرة أنّ جدّنا وبعض رفاقه سرقوا الحجَر، طاردهم حُرّاسه لإعادته،لم يُطاردهم حرّاسُ الحجر فقط، بل هناك ساحرٌ علمَ حكايته وأراد امتلاكه، طاردهم وقضى عليهم واحدًا تلوَ الآخر،لم يبقَ منهم سوى جدّنا الذي خبّأه في كهفٍ بالجبل، ولمّا عَلِمَ هذا الساحر بالمكان استولى على الحجر، قضى به على قريةٍ كاملة، عاث في الأرضِ فسادًا، تجبّر وظنّ أنّه إلهٌ على الأرض، فأرسل الله «المرض»- أحد جنوده - أخذه أخذَ عزيزٍ مُقتدر، لكنّه لمّا شعر بدنوِّ النهاية وضع الحجر في الكهف وعيّن حُرّاسًا عليه، أصبح الحجر لعنةً أراد جدّنا أن يتخلّص منها لكنّ الموت اختطفه، أخبرتنا جدّتي أنّ مَن يمسّ الحجر ستتحقق أوّل قوة خارقة يفكر فيها. في اليوم الذي عثرنا فيه على الحجر فقَدْنا «كامل»، شيءٌ ما سحبه لقاعِ البحيرة التي وجدناها

في الكهف ولم نستطع إنقاذه، ثمّ بعدَها تهْنا في بوّابة مكانية لا نعلم كيف دخلناها! نقلتنا لموطن الحجَر، تعبنا كثيرًا قبل أن نكتشفَ طريق العودة، وفوْر عودتنا أسرعنا في كسْره وافترقنا؛ لأن الجدّة أخبرتنا أن كسرَ الحجر وابتعادَ أجزائه عن بعضها سيحبس حرّاسَ الساحر، ويجعل حصولهم على الحجر صعبًا، ساعدنا صديقنا «عرفه الحدّاد» قسّمه لثلاثة أجزاء، أخذ كلٌّ منّا قسمًا، ودّعنا بعضنا وكنّا مُجْبرين على الفراق، استقرّ شمس في الصعيد، وسافر عارف للإسكندرية، وسافرت أنا خارج مصر، لم نلتقِ منذ ذلك اليوم، حاولنا كثيرًا أن تظلّ الرابطة قوية بيننا، لكنّ كبدَ الحياة وانشغالاتها قطعت أخبارنا، حتى تواصل معنا عارف ذاتَ يوم، لقد كان يرى المستقبلَ في رؤى، أخبرنا بنبوءةٍ هامة رآها، لا يهمّ إخبارُكِ بها الآن، لكنّني أهديتكِ القلادةَ وأظنّ أنّ رفاقي فعلوا ذلك مع أحفادهم، لا أعلم ما القوة التي أردتها، لكنّ الحجر سيفعل بكِ كما فعل بنا، سيغريكِ، فاحذريه؛ إنّه لعنة يا صغيرتي، عليكِ أن تعودي لمصر وتبحثي عن أحفادِ رفاقي، عليكم أن تتّحدوا وتُعيدوه إلى موطنه، افْعلوا مالم نستطعْ فعله، لا وقتَ لديّ لأحكي تفاصيل القصة، حاولت فقط أن أوضح لكِ الخطوط العريضة، أمّا كيف ستفعلين ذلك، فستجدينَ الإجابة عند شمس؛ فهو يحتفظ بكلّ المعلومات التي ستُساعدكم، سأتركُ لكِ مُفكرتي فيها عنوان شمس الدين درغام في صعيد مصر، أول خطواتك تبدأ من عنوانه، أعلم أنّكِ قوية ستتحملين المسئولية. احذري جيدًا يا ابنتي، عليكم جميعًا أن تحذروا؛ فإذا وقع الحجر في يدِ قلبٍ يحمل الشرّ لا أستبعدُ أن يتدمّر العالم أجمع، أنا لا أقول تخاريف أو أساطير وأكبر دليل هو القوة التي منحكِ إياها الحجر، أحبّكِ جدًّا، لا تنسي أنني دائمًا حيّ في قلبك».

تنظرُ بتيهٍ للشاشة- التي انطفأت للتو-، لو لم تكن تسمع الأفكار لقالت بالفعل أنها محضُ أساطير! التقطتِ المفكرة ونظرت للعنوان المدوّن بحيرة، لا تعلم هل ستُضحّي بالوظيفة التي حلمتْ بها وتتخلّى عن سماع الأفكار، بعدما وصلت إليه من أجل وصية جدّها؟! أم ستنسى ما سمعت وتعودُ لحياتها الجديدة؟

❋❋❋

لا تزرعْ في دربي شوكًا؛
لعلّك غدًا تأتيني حافيًا..

ويليام شكسبير

## (٥)
# المواجهةُ الأولى

عبرتْ سيارة «BMW» حديثة بوّابةَ مدينة الإنتاج الإعلامي، توقّفت أمام مبنى أكبر قناة إخبارية، هبطَ منها أنيقٌ بحلّة سوداء، استقبله فريقُ إعداد البرنامج بحفاوةٍ بالغة إلى أن وصلَ إلى غرفة الاستراحة، قدّموا له كأسَ ليمونٍ باردٍ، ثمّ جلست معه مُقدمة البرنامج تُرتّب الحوار قبلَ بداية الحلقة،لم تكنْ مرّته الأولى أن يحلّ ضيفًا على أحد أشهر البرامج التّليفزيونية، لكنّه في كلّ مرةٍ يتحدّث فيها أمام الكاميرا يرتبك كأنها المرة الأولى! وسرعان ما يتلاشى الارتباكُ فورَ بداية الحديث عن عمله. حانَ وقت البثّ، جلس في الاستوديو أمامَ المذيعة، التي ما إنْ أخبرها المخرجُ في سمّاعات أذنها ببداية البثّ، ابتسمت للكاميرا وهي تُرحِّبُ بالمشاهدين، ثمّ قدّمت ضيفها قائلةً:

«موهبتُه فاقت كلّ الحدود، فاقت حتى فراسة المُحققين، إذا قرأت مقالًا له ستشعر أنّك في عالمٍ آخر، كأنّك ترى الجريمة بعينِ الضحية لا تقرأ سطورًا كتبها عبقري! صاحبُ جريدة الحقيقة والعديد من المقالات والروايات البوليسية المُبهرة، الكاتب الصحفي شمس الدين درغام، أهلًا بكم».

قدّمته ثمّ نظرتْ له باسمةً لتتحوّل الكاميرا نحوه يبتسم بثقةٍ كجلسته، تلاشى قلقه كعادته بعدَ أن بدأتِ المذيعة في محاورته..

***

دخل شقّته بخطوات أثقلها الإرهاق، حلَّ رابطة عُنقه وألقاها على الطاولة ثمّ تمدّد على الأريكة، تحسّس القلادة، كان سيتّهم بالجنون مَن يخبره منذ عام أنّه سيركب مثل هذه السيارة، أو سيسكن في برجٍ على النيل، أو أنه سيكوّن ضيفًا في كلّ هذه البرامج، أو حتى أنّه سيُصبح صاحبَ جريدة لها شعبية كجريدته! ربّت على الحجر بهدوء وابتسم، لقد اختارَ أن يُسمي نفسَه شمس الدين درغام؛ ظنًّا منه أنّ هذا أقلّ شكرٍ يمكن أن يُقدمه لجدّه- صاحب الفضل في النّعيم الذي يعيشه الآن- تذكّر هاتفه المغلق مذ كان في مدينة الإنتاج الإعلامي فأخرجَه من جيبه وفتحه، تلقّى العديد من الرسائل في بريده الصوتي، بدأ يسمعُها واحدةً تلو الأخرى بينما يُعدّ قهوته اللّيلية، كلها رسائلُ عملٍ إلّا أنّه توقّف عند رسالة من امرأة تُخبره فيها أنّها تُريد مقابلته لأمرٍ هام، وتطلب منه أن يتّصل بها، تجاهلها بعدما انشغلَ برسالةٍ من عاكف، يطلبُ منه أن يتوسّط له عند أحدِ رجال الأعمال المُقرّبين منه، فابتسمَ بسخرية، رشف رشفةً من قهوته، ثمّ حملها واتّجه نحو الشرفة، ينظر للنيل والسماء، وشعورُ الراحة والرضا يتسلّلان إلى قلبه، كرّر سماع رسالة عاكف فارتفعتْ ضحكته الساخرة، أعاد الهاتفَ لجيب بنطاله وشرد في السماء، يرى الماضي على صفحتها، تحديدًا اللّحظة التي ذهب فيها لعاكف فرحًا ذات صباح، يطلب منه أن يتولّى تحقيقات مقتل زوجة رجل الأعمال فتحي الشنّاوي، قابل طلبه يومَها بالسخرية والإهانة، كما طرده من العمل بعد أن فقدَ وعيَه في مسرح الجريمة، لم يستسلم، عاد لبيته وبدأ وضع خطّةٍ مُحكمة ليُثبت أنّ فتحي هو القاتل، بعد أن أُغلقت التّحقيقات وتقيدت القضية ضدّ مجهولٍ، كما امتنعتِ الصّحف عن كتابةِ حرفٍ آخر، ليلتها فتح حاسوبه، كتب اسم فتحي الشنّاوي في محرك البحث، فظهر العديد من المواقع، منها ما يتحدث عن إنجازاته، ومنها ما يتحدّث عن قضايا الفساد التي تلوّث

فيها اسمه، وخرج منها لعدم وجود أدلّةٍ كافية، لاحظَ في بعض المواقع ظهورَ امرأة جانبه، قرأ أنّها زوجته السابقة «جيهان الأتربي» دوّن الاسمَ في مفكرته، ثمّ فتح صفحة بحث جديدة وكتبَ اسمها، ظهر العديد من أعمالها الخيرية، وخبرُ طلاقها من فتحي الشنّاوي، دوّن أسماء الجمعيات الخيرية، ثمّ بحث عن خبر طلاقها من فتحي، ولم يجدْ غير معلومة واحدة تُفيدُ بأنّ الطلاق تمّ في هدوءٍ، وبالتراضي بينَ الطرفين، لمح حزنًا جليًّا في عينيها في كلّ صورها، شعورٌ قويّ يخبره أنّها الخيط الأول في البحث. وفي اليوم التالي ذهبَ إلى الجمعيات التي دوّن اسمها، منهم مَن أنكر وجودها مِن البداية، ومنهم مَن أخبره بانفصالها عنهم، أوشك اليأس أن يتسلّل إلى قلبه فخطر بباله أنْ يستعين بأسلوب أمجد، دسّ في يدِ أحد العاملين في الجمعية حفنة من المال، وعلى الفور استطاعَ الحصول على عنوانها ورقم هاتفها، الذي وجدَه مُغلَقًا- ذهب لعنوانها فرآها تخرجُ من بيتها وتتّجه نحَو سيارتها، ركبتها ثمّ انطلقت فاستقلّ سيارة أجرة وتَبعها، قابلت صديقةً لها في أحدِ المطاعم الكبرى، فدفع للسائق وظلّ منتظرًا خروجها وعينه لم تبرح مكانها، رآها تخرجُ فانتظر بالقرب من سيّارتها، وعندما وصلت إليه استخدم اسم جريدة عاكف مُدّعيًا أنّه صحفيٌّ فيها، فتعاملتْ معه بلطفٍ، وعندما ذكر اسم فتحي استشاطت غضبًا، ركبت سيارتها ولاذتْ بالفرار، انتظر أمام بيتها في اليوم التالي، حينما رأته هددته بالاتّصال بالشرطة، فطلب أن تُغدق عليه من وقتها الثّمين بساعة واحدة، وبعدها سيرحل ولنْ يزعجها مرّةً أخرى، ظلّت تعبث في أزار هاتفها مُهدّدةً بطلب رقم الشرطة فقال:

– هو لم يقتلْ أمل وحدَها، بل قتلكِ أيضًا يا جيهان، الفرق بينكما أنّكِ تنازلتِ عن حقّك، أمّا هي فلم يكن لها حقّ الاختيار، لقد قتلها بدمٍ باردٍ

واستخدم نفوذه ليغطي على جريمته، وبعد أشهرٍ سيجد ضحية أخرى إمّا يقتلها كما قتل أمل، أو يقتلها على قيد الحياة مثلك.

كانت تسمعُه بعينين تحجّرت العبراتُ فيهما، تراجعت عن الاتّصال، وقالت بِحدّة:

- معكَ ساعة واحدة، وبعدها إنْ رأيتك مرّة أخرى فلن أتوانى عن الاتّصال بالشرطة.

تهلّلت أساريره قائلًا:

- حسنًا كما تريدين، سؤال واحد فقط.

تلفّتت حولها ثمّ قالت:

- لنتحدّث في حديقة البيت لا أريد أن يرانا أحد.

جلسَا، وقبل أن يبدأ قالت:

- أرني هاتفك أوّلًا.

فتحَه ووضعه بين يديها قائلًا:

- هدفي ليس تسجيل ما سيدور بيننا، أو حتى ذكر اسمك، أريد فقط أن أتأكّد من أمرٍ سيساعدني في حلّ القضية.

رمقتْه بنظراتٍ حَذرة، وظهر هذا الحذرُ في حروفها وهي تسأل:

- لماذا تُجزم أنّه قتلها؟

ابتسمَ بثقةٍ سرعان ما انتقلت إلى حروفه وهو يقول:

- أمل قُتلت وفي أحشائها جنين.

رمقتْه بدهشةٍ فتابع:

– وأنتِ تعلمين جيدًا أنّ فتحي عقيم.

خرجتْ منها شهقةٌ، ثمّ سألت:

– كيف عرفتَ بهذا الأمر؟!

تجاهلَ سؤالها قائلًا:

– لا يهمّ كيف عرفت، المهمّ أن تُخبريني الآن كيف يمكنني إثبات ذلك؟

رأى شجونَ ماضيها في عبراتها، التي أتقنتْ حبسها، فقال:

– أرجوكِ ساعديني لنوقف شرّه.

ردّت مُنفعلة:

– لقد حذّرت «أمل» هذه قبلَ زواجها، لم تسمعني، أخبرَته فاسْتأجر مَن اعتدى عليّ، وبسببها مكثتُ طريحة الفراش شهرًا.

ردّ مُدافعًا:

– لم تكنْ تعلم ما ستُلاقيه، أرجوكِ ساعديني إنْ لم يكن من أجلها فمِن أجلك؛ ربما يخافُ أن تُفشي سرّه فيقتلك.

قذفَ الفكرةَ في رأسها فصمتتْ برهةً، ثمّ قالت:

– لديّ الدليل، لقد احتفظت بنسخة من الفحوصات التي أجراها وأثبتت عقمه، رأيتها في البيتِ صدفةً فقمتُ بتصويرها وأحتفظُ بها إلى هذه اللحظة، هو نفسُه لا يعلم أنني فعلت ذلك، أو أنني رأيتها، احتفظت بهذا السرّ لأحمي نفسي من شرّه.

قال بفرحةٍ، ثمّ بصوتٍ يكسوه الرجاء:

– ممتاز، أيمكن أن تُعطيني نسخة منها؟

قالت والغضبُ يلمعُ في عينيها:

– أعتقدُ أنّ وقت انتقامي قد حان، سأُعطيك نسخةً من التقارير، وبعضَ الأدلة على فساده، لكنّك لم تَرَني.

قال مُطمئنًا قلبها:

– لم أركِ من قبْل، هدفي هو أنْ أظهر الحقيقة فقط.

نهضتْ من مجلسها وهي تقول:

– اتّفقنا، لحظة وسأعود.

دخلت إلى البيت ثمّ عادتْ بعدَ دقائق ومعها ذاكرةٌ وميضية، ناولتها له قائلةً:

– ستجدُ نسخة من كلّ شيءٍ هنا، من فضلك مهْما حدث لا أريد أن يظهرَ اسمي كما لا أريدُ رؤيتك مرّة أخرى.

دسّ الذاكرة في جيبه قائلًا:

– لا تقلقي لنْ تريني مرّة أخرى، شكرًا لكِ.

لم يعدْ إلى بيته هذه المرّة بخُفّي حُنين، عاد رابحًا يحمل الدليلَ الأول، اتّصل بأمجد وسأله عن طريقةٍ للحصول على تقريرٍ من المشْرحة، أعطاه اسمَ عاملٍ هناك وحذّره من طمعه، في اليوم التالي ذهبَ إلى العامل في المشرحة، تمّ التكتّمُ على تقرير جثة أمل الحقيقي وتبديله بآخرَ كما تمّ طردُ الطبيب

الذي قام بتشريح الجثة بعدَ اعتراضه، ولأنّ الوصول لهذا التقرير لم يكنْ سهلًا، دفع مبلغًا باهظًا في سبيل الحصول عليه، ثمّ تأكّد من ذكر أنّها كانت تحمل جنينًا في أحشائها، الآن أصبح لديه أهمّ دليليْن، ينقصه البحث عن القاتل، الذي لم تغب صورتُه لحظة عن باله. استعانَ بأحد أصدقائه الرسّامين في الجريدة، وصف له ملامحَ القاتل فرسمها بدقّة، تأمّل الرسمة مُنتشيًا، ثمّ استعان بضابط شرطة من أقارب أبيه، وحينما بحثَ عن صاحب الرسمة وجدَ ملفّه نظيفًا، لكن ما لفت انتباهه أنّه فرد أمنٍ في شركة من شركاتِ فتحي الشنّاوي، ذهب للشّركة المذكورة، بحث عنهً في وجوه رجال الأمن الواقفين فلم يجده، سأل أحد زملائه عنه فأخبره بأنّه في إجازة منذ أكثر من أسبوعين- أي بعدَ الحادثة-، استطاع الوصول لتسجيلات كاميرات مراقبة في محيط فيلا فتحي الشنّاوي، ظهرَ فيها وجهُ القاتل بالقرب من المنزل بعد وقوع الجريمة، أصبحت الآن لديه أدلة ويحتاجُ جهةً لنشْرها، تواصل مع أكثرَ من جريدة، وجميعهم رفضوا فتح القضية من جديد، حتى عاكف رغم أنّه أخبره بوجود أدلة جديدة؛ رفضَ وأهانه كعادته، عاد لبيته مُحبَطًا، اتّصل به أحدُ أصدقائه المُقربين، وجدَه توقيتًا ممتازًا؛ فهو بالفعل يحتاج للحديث، تحدّثا طويلًا وتطرّق لعمله فقصَ على صديقه سببَ إحباطه دون أن يتطرّق إلى ذكر الحجر، اقترح عليه صديقه أن يستخدمَ مواقع التواصل الاجتماعي بعدما أصبحت الآنَ الإعلام الذي يلجأ إليه كلّ فئات المجتمع، راقت له الفكرةُ فذهبَ لمكتب صديقه في اليوم التالي ومعه الأدلّة التي حصل عليها، أنشأ صفحة باسم «الحقيقية» وأخفى هويّة صاحبها، أدخل التقاريرَ والأدلة بصورةٍ واضحة إلى الحاسوب، وبعدها كتب مقاله ثمّ أرفق بمنشوره الصورَ ومقاطع الفيديو، وقف على زرّ النّشر بأصابع مرتجفة،لم يعدْ هناك مجالٌ

للعودة، نشر المقال ثمّ قام صديقُه بعملِ إعلانٍ ممول، كانا يتسامران حينما فاجأهما التفاعلُ مع المنشور، عدد المشاهَدات والمشاركات يزداد، وفي اليوم التالي أصبح المنشور حديثَ الناس، وفُتحت القضيةُ من جديدٍ رغمَ أنف فتحي ونفوذه، بعد هذه القضية بدأ شمس يعمل في القضايا وحدَه، وينشر مقالاته على صفحته، التي أصبح لها ملايينُ المتابعين وأصبحت الأخبار تنتشرُ من خلالها كالنّار في الهشيم. أظهر هويتَه بالتدريج، فعرضت عليه أكبر الصحف العملَ لَصالحهم، ورفض، كما عرض عليه عاكف العودةَ بمنصبٍ جديدٍ فقابل عرضه بالرّفض، وردّ له صاعَ الإهانةِ صاعين، مقالاته مختلفةٌ ومثيرة للدهشة، حينما ينقل خبرًا أو يتحدّث عن جريمة، يحكيها بطريقةٍ تُشعِرُ القارئ أنّه كان موجودًا لحظة حدوثها! عمل في جريدةٍ لم يحلمْ بالالتحاق بها، أصبح ضيفًا في العديد من البرامج التليفزيونية، وكتب رواية تلوَ الأخرى، ثمّ أصبح أشهرَ كاتبٍ صحفي له جريدته الخاصة، استطاع أن يصل لأكثر مما حلم، تحسّس الحجَرَ باسمًا وهو يدعو لجدّه.

***

وصلتْ إلى عنوانِ البيت بسهولةٍ؛ فما إن ذكرت اسم شمسِ الدين درغام وجدت الصغير والكبير يرشدُها للمكان، تردّ على نظراتهم المُريبة المتفحصة وأسئلة رؤوسهم الفضولية بنظراتٍ مُرتبكة، وقفت تطرقُ الباب ولا مُجيب، لمحت صغيرًا يلعب بالكرة فسألته عن صاحبِ البيت، تأمّلها في صمتٍ ثمّ ركضَ مُتّجهًا نحو البيت المقابل لبيت شمسَ، زفرت حانقةً ثمّ عادت للباب، وجدتْ أريكة خشبية جانبه، فجلست تستريح عليها، ثوانٍ وخرجَ عجوزٌ من نفس البيت الذي دخله الصغير، اقترب منها وسألها عمّا تريد، أخبرته بأنّها حفيدة شمس الدين وابن عمّه فاروق وتريد رؤيته، ولمّا ذكرت

اسم «فاروق» تهللتْ أساريرُ العجوز، وسألها عن جدّها، حزن بعد سماع خبر موته كما حزنت عندما علمت بوفاةِ شمس الدين، همّت أن تسألَ عن حفيده، وكأنّ الرجل سمع سؤالها قبل أن تنطقه! أعطاها هاتفَ شمس، وأخبرها أنّه يقطن في القاهرة، شكرته ثمّ عادت إلى القاهرة، حاولت أن تتّصل بالرقم مرّاتٍ وكرّات، إمّا يعطيها رنينًا بلا إجابة أو تجد الهاتف مغلقًا، أرسلت العديدَ من الرسائل بالبريد الصوتي، بالطبع لم تذكرْ في أيٍّ منها الحجرَ ولا مُجيب. كانت تتناول العشاءَ أمام التلفاز في الفندق، غير منتبهة إلى أن تناهى لمسامعها الاسم الذي نطقته المذيعة، رفعتِ الصوت وتابعتِ الحلقة باهتمام، المذيعة واتصالات المشاهدين تتعجب من هذا الرجل إلّا هي، ابتسمتْ وقدً فهمت أنّ موهبته هذه من فعْل الحجر، التقطت الهاتف وكتبتْ اسمه في متصفّح الإنترنت، جمعت الكثيرَ من المعلومات عنه، وصلت إلى موعد حفلِ توقيع روايته الجديدة، دوّنت عنوانَ المكان والوقت، لن تُحاول الاتصال ثانيةً، تظنّ أنّ وقت المواجهة الأولى قد حان.

***

ارتدى حلّةً سوداء أنيقة، أغلق زرَّ القميص جيدًا ليخفي القلادة، هذّب شعره ثمّ ذهب إلى الحفل، استقبلوه بحفاوةٍ تليقُ بكاتبٍ مشهورٍ مثله، بدأ الحفل بمناقشة روايته، والإجابة عن استفساراتِ الحضور، كانً يتحدث حينما لسعَ الحجرُ صدره وشعر بصداع فجائيّ مؤلم، توقّف عن الكلام وهو يضغط صدْغيه، ويُحاول التخلصَ من الثقل الذي جثم على صدره فجأة.

وعندَ باب القاعة تقف فاتنةٌ بفستانٍ أصفر وشعرٍ معقوص، تلمع قلادة زرقاء في جيدها، تسندُ على الحائط، ألمٌ شديدٌ ينخر في عظامها ويعتصر قلبها، تختنق كلما اقتربت من القاعة. عاندتْ آلامها ودخلت، جلستْ على أقرب

كرسيّ قابلها، شُوِّشت رؤيتها وتداخلتْ أصوات أفكارِ الحضور فآلمت رأسَها أكثر.

فكّ زرّ القميص الأول، وحلّ رابطة عنقه قليلًا، سقطت غلالة سميكة على عينيه فحجبت عنه الرؤية، يسمع الأصواتَ فقط ولا يرى أحدًا، قلق الجميعُ عليه، ثوانٍ وعاد لطبيعته، لا يفهمُ ما حدث له!كما لم تفهمْ هي أيضًا ما حدث لها فجأة! عاد وضوح رؤيتها وانتهت الآلام، وقفَ الحضور لتوقيع نسخهم، فاشترتْ نسخة ووقفتْ في الصف، انتظرت إلى أن حانَ دوْرها، وقفتْ أمامه صامتة، فسألها بابتسامةٍ مجاملة عن الاسم، وسرعان ما اختفت ابتسامتُه وتجمّدت نظراتُه على القلادة التي ترتديها، سمعته يتحدّث لنفسه مُندهشًا «هل هذا نفسُ الحجَر الذي أرتديه؟!» فابتسمت ثمّ قالت بثقة «أجل، إنّه نفس الحجر الذي ترتديه»، عاد يسألُ نفسه بالدهشة ذاتها «كيف سمعتْ ما يدور في رأسي وكيف علمت أنّني أرتدي حجرًا؟!» اتسعت ابتسامتها وهي تسمع حيرته والأسئلة التي لم ينطقها، فقالت «سأجيبُ عن كلّ أسئلتك وأوضّح كلّ شيء، حاولت التواصل معك فلم تردّ على الهاتف، ها هو رقمُ هاتفي دوّنته لك في هذه الورقة، سأنتظر اتصالك».

ناولته الورقة ورحَلت، تابع اختفاءَ أثرها عن ناظريه في ذهولٍ ثمّ نظر لاسمها المدوّن في الورقة بحيرةٍ، وتحسّسَ الحجر.

❋❋❋

تعلّقت عيناهُ بها ولمّا غضَ الطرفَ عرفَ أنّ روحه هي التي تعلّقت.

رضوى عاشور

(٦)

# الدّليلُ الأوّل

تمخّض الليلُ عن الصباح، وهو واقفٌ في نافذته، أنجبَ الليلُ بعد اكتماله صبحًا جديدًا، وهو يراقب ولادته، لم يغمض جفنه منذ أن رآها البارحة، ترك الحفل وركضَ خلفها، وكأنّ الأرضَ انشقّت وابتلعتها! اختفت فساوَرَه الظنّ أنّها ليست إنسية! اتصل بها، وبحروفٍ أكلَ رؤوسها الفضول، أمطرَها وابلًا من الأسئلةِ فلم تُجب، آثرت هدايته من حيرته حينما يلتقيَا، مقتَ منها أنْ تجعله مُعلّقًا في حيرته، فطلب منها أن يتناولا الفطور سويًّا، اختارت مطعمًا في حيّ «مصر القديمة»، ملّ مراقبة الصباح فبدّل ملابسه واستعدّ للّقاء، ثمّ رحل قبل الموعد.

ساقَها عشقُها لهذا المكان الذي لم تزُره من قبْل، عشقٌ تشرّبته من حكايات جدّها عنه، أرادت أن تبدأ تنفيذَ وصيته بمكانه المفضّل، الطريق بدَا مُرحِّبًا بهما فلم يكن مزدحمًا، وصلتْ قبلَ الموعد وساورها الظنّ بأنّها ستنتظر كثيرًا، تفاجأت به منتظرًا على إحدى الطّاولات، سلب المكانُ لُبّها، بدتْ كالمسحورة وهي تتأمله، تتذكر وصف جدّها وصوره هنا، أخطأته ريشة الزمان فلم يتغير شيءٌ من ملامحه، استحضر أنفُها رائحته فأغمضت عينيها، وظلّت تستنشق عبقَ رائحته من ذاكرتها، ابتسمت ملء شدقيها حينما صدح صوتُ فيروز في المكان:

بشائرُ الصباح.... أغنية الكناري.... تناجي الغصونْ

ونسمة الصباح تطوف حول داري.... بهمسٍ حنونْ

– هل ستنتظرينَ هنا حتى تنتهي فيروز من الغناء؟!

فتحتْ عينيها بفزعٍ ثمّ رمقته بانزعاجٍ؛ بعدما أفسد عليها حالتها من الوجد– التي كانت تعيشها– وقالت:

– لقد اتفقنا أن نلتقي في تمام العاشرة، والآن الساعة العاشرة إلّا الربع، لا أظنني تأخرت!

ردّ بحدةٍ:

– من فضلك أنا لم أنمْ من البارحة، هلاّ جلسْنا لينتهي الأمر؟

ضحكتْ بسخرية ثمّ قالت:

– لا أظنّ بعدما تسمعني سينتهي الأمر، بل سيبدأ!

تبيّنت لها حيرته كما لو كانَ يلفظ بها، فقالت:

– لنقعدَ الآن قبلَ أن تفتكَ الأسئلة برأسك.

قعدَا، فحضر النادل، طلبَا الفطور، انتظرت رحيلَ النادل ثمّ نظرتْ نحو شمس قائلةً:

– أنا زهرة، حفيدةُ الدكتور فاروق درغام، وأيضًا حفيدة ابن عمّه شمس الدين درغام–جدّك–، هل عرفتَ الآن مَن أكون؟

تأمّلها هنيهةً، ثمّ أومأ ورحّب بها، أشارتْ نحو عنقه وسألت:

– ترتدي القلادة الآن، أليس كذلك؟

تحسّس صدره، ثمّ قال:

– أجل، لم أخلعْها منذ أن ارتديتُها في المرّة الأولى.

أُعجبتْ بقوله، وعبّرت عنْ إعجابها بأنْ رفعت إبهامها وخبّأت باقي أصابعها في حضن كفّها، ثمّ سألت:

– هل راودَك شعورٌ غريبٌ البارحة في الحفل؟

قصّ ما حدث له فابتسمت قائلةً:

– توقّعت ذلك، لأنّ هذا ما حدث لي أيضًا، ربّما لأنّ الجزئين الأوّلين من الحجر التقيَا للمرة الأولى!

سألَ بدهشة:

– الجزئين الأوّلين! ماذا تقصدين؟

أجابت:

– سأحكـ

قطعتْ جملتها حينما أحضرَ النادلُ الفطور، تابعت رحيله، ثمّ نظرت إلى الطعام وهي تُكمل حروفَ جملتها:

– سأحكي كلّ شيءٍ، لكنْ دعْنا نتناول الفطور أولًا.

نظرَ لها في صمتٍ بينما يتحدّث إلى نفسه قائلًا «ما هذه الفتاةُ الغريبة! أهذا وقت طعام؟ لم أنمْ من البارحة وهي تتصرّف وكأنّ كلّ شيءٍ على ما يرام!»

ضحكتْ بمكرٍ ثمّ قالت:

– أتصرّف كذلك لأنّ كلّ شيءٍ سيكون على ما يُرام بالفعل.

اتّسعت عيناه، فقالت بهدوءٍ وهي تلتقط حبّة زيتون:

– بالمناسبة، الموهبةُ التي اخترتها هي سماعُ الأفكار، أي أنني على اطّلاعٍ بكلّ ما يجول في خلدِك الآن.

جفّ حلقُه من المفاجأة، رشفَ رشفةً من كأس العصير فسألت:

– إلى أنْ ننتهي من الطعام أخبرني كيف وجدتَ الحجَر؟ وما الموهبة التي اخترتها؟

تناولَا الطعام وكلٌّ منهما يحكي عن الحجر، وعنْ موهبته، ولمّا انتهيَا من فطورهما، أوصلت الذاكرةَ الوميضية– التي تركها جدّها– بوصلةٍ صغيرة، ثمّ أوصلتْها وسمّاعات الأُذن بالهاتف وطلبتْ منه أن يستمعَ لجدّها؛ ففعل.. تُراقبهُ وهو ينصت إليه، تتقلّبُ ملامحه بين الدهشة والحيرة، مثلها تمامًا حينما سمعتْه للمرّة الأولى، ظلّت تراقبُ صمته وحيرته إلى أن بدّلهما سائلًا:

– ذلك يعني أنّ للحجَرِ بقية، وعلينا إعادته؟!

أجابت بثقة:

– أجل، كيف سيحدث ذلك؟ الإجابة عندك

رفعَ كتفيه وحاجبيه استنكارًا وهو يقول:

– لا إجابات عندي، أنا حتى لم أكنْ أعرف أنّ ما أملكه مجرّد جزءٍ من حجرٍ أكبر، فهمتُ الآن قصدَ جدّي في رسالته وتحذيره لي، لكن مازلتُ لا أعلمُ كيف أستطيع المساعدة؟!

قالت:

– أنتَ أدرى بالمكان الذي يضعُ فيه جدّك أشياءً هامّة يمكنها أن تساعدنا.

زمّ شفتيه، وغضّن زوايا عينيه ثمّ قال:

– إنْ كان هناك شيءٌ هامّ، فلا بدّ أن يكون في بيت الصعيد وليس هنا، كما أن لديّ أوراقًا تشبه المخطوطات، مكتوبةٌ بلغةٍ لم أستطع فهمها، أو حتى معرفة اسمها!

ردّت بحماسٍ:

– عظيم، ألديك مانعٌ أنْ نبدأ المغامرة غدًا؟

قطّب جبينه سائلًا:

– لم أفهم، أيّ مغامرة تقصدين؟

ابتسمت مُجيبةً:

– سنُسافر لبيت جدّك، ونبحث عن أثرٍ يدلُّنا.

***

منذُ أن وصلا إلى بيت شمس الدين في صعيد مصر وهُما يبحثان عن شيءٍ لا يعلما ماهيته، حاولَا جاهدين معرفةَ لغة المخطوطات، ولكنْ ذهب جهدهما أدارج الريح! لم يجدا شيئًا هامًّا يُمكن أن يساعدهما، سوى دفترِ أرقام الهواتف والعناوين الذي وجدوه في غرفة مكتبه، نظرَ للدفتر مليًّا ثمّ قال:

– لا أعلمُ فيما سيفيدنا، لكنّنا فتّشنا البيت عن بكرة أبيه ولا أثر لدليل.

قلّبتْ صفحات الدفتر وبصرها يتقلّبُ بين الأرقام إلى أن وقع على اسم «عارف» والعنوان المُدوّن في الإسكندرية، فتذكّرت جملة جدّها «ظلّ شمس في الصعيد، وسافر عارف للإسكندرية، وسافرت أنا خارج مصر»، فقالت وقد بدأ الحماسُ يدبّ في أوصالها من جديد:

– ربّما عارف هو الدليل.

نظرَ لها بعدم فهم سائلًا «مَن عارف؟!» فأجابت «صديقُ جدّينا الثالث، ألم تسمع جدّيَ جيدًا؟ لقد ذكر أنّ «عارف» هذا عاشَ في الإسكندرية، والعنوان المدوّن هنا بالفعل فيها».

قرأ العنوان ثمّ قال «ولِمَ لم يذكر جدّك عنوانَه هو مباشرةً؟! لماذا قال إنّ ما سنحتاجه عند جدّي؟!»، مطّت شفتيها ثمّ أجابت «لا أعلم! لقد بحثنا هنا كثيرًا ولم نجدْ شيئًا، ربما نجدُ ما نبحثُ عنه عند عارف»، فقال «أتظنّين أنّ أمرَ الوصول إليه بهذه السهولة؟!»

عقدتْ ذراعيها أمامَ صدرها قائلةً:

– مثلما لم يكنِ الوصولُ إليك أيضًا بسهولة.

حلّت ذراعيها ثمّ بسطتْ كفّيها نحوه وهي تُكمل «لكنّي في النهاية فعلت، وها أنت أمامي الآن»، سمعتْ ما يُفكّر فيه فقعدتْ على أريكةٍ بالغرفة وقالت:

– أتعلم يا شمس! كنتُ مثلك في البداية، أخبرني جدّي أنّ الحجر سيُغريني ويرمي بي في هذا الصّراع الذي عشته مثل عيشك فيه الآن، لكنّي بعدما استمعتُ إلى جدّي، تجاهلتُ تحذيرَه واستسلمتُ لأنانيتي، كنتُ أخشى أن يضيع كلّ ما وصلت إليه، أخشى أن أعود فجأةً كما كنتُ صفرًا لا قيمة له، لذا ضربتُ بما استمعتُ من جدّي عُرض الحائط، قرّرتُ الاحتفاظ بالحجَر، والاستمرارَ فيما بدأت، وذاتَ ليلة رأيت في منامي الأخبار على التّلفاز تُعلن أنّ الفوضى تسود العالم، نظرتُ من شرفتي فرأيتُ دخانًا أسود كثيفًا يملأُ السّماء، الناسُ تجري في كلّ مكان، السياراتُ فاقدةٌ للسيطرة، و....

كان يسمعها فاغرًا فاه، ثمّ قاطع حروفَها، وأكمل الحلم كأنّه كان معها داخله:

– الفوضى في كلّ مكان، ولا أحد يسمعُ النداء، لا صوت يعلو فوقَ الصراخ والعويل، النّاسُ كالفراش المبثوث، ظننته يومَ الساعة!

فتابعتْ زهرة:

– هربتُ من شقتي حينما شعرتُ باهتزاز الأرض من تحتي، وجدت المصاعد مُعطلة فهبطتُ الدّرج ركضًا، وصلتُ المرأب بأنفاسٍ مُتقطِّعة، وجدتُ الكثيرين مثلي، يأسرُ الهلعُ عيونَهم، بدأ سقفُ المرأب يتساقط فوق رؤوسنا، سقطتُ أرضًا وكادت الأقدام الفارة تدْهسني، نجوتُ بأعجوبةٍ،لم أستطع الوصول لسيارتي، قوة دفع الهاربين أخرجتني من المرأب، كنتُ أجري في تخبُّط كالمجنونة، ليس لديّ هدف محدد، أهرب كباقي الهاربين! إلى أن توقّفتُ فجأةً أمامَ رجلٍ يعتلي كومة من السيارات..

سرقَ شمس حروفها وتابع:

– يحملُ في يده حجَرًا، يخرجُ منه شعاعٌ أزرق، مُحدِثًا غيمة سوداء تملأُ السماء، يضحكُ قائلًا بصوتٍ عالٍ «الآن، أصبحتُ سيدَ العالم»، ثمّ رأيتُ جدّي يقفُ باكيًا...

فاستعادتْ زهرة حروفها، قالت بصوتٍ مُتهدج:

– ويقولُ لي «لم تستمعي لتحذيري، لم تحفظي الأمانة، دمّرت أنانيتك العالم»، جملة جدّي هي آخرُ ما أسمعه قبل أن يوجّه هذا الرجل الحجَرَ نحوي، أشعرُ بجسدي وهو يحترق، ثمّ أستيقظُ فزعةً بجسدٍ مُلتهب، وعلاماتٍ في جسدي.

فقال بعينين وحروفٍ مفزوعة:

– وأنا أيضًا أرى الكابوسَ ذاته!

بابتسامةٍ محدودةٍ من جانبِ فمِها خرجت بالكاد قالت:

– هل فهمتَ الآن لمَ تركتُ كلّ شيءٍ خلف ظهري، وأتيتُ إلى هنا أُنفذ وصية جدّي؟ شعرتُ أنّ هذا الكابوس رسالةٌ منه، فخشيتُ أن أحتفظَ بالحجر، لا أعلمُ ما الكارثة التي يمكّنها أن تحدثَ بسببه، لكنّ فكرة احتمال حدوث كارثة بسبب أنانيتي وحدها مُرعبة.

لم يُعقِّب رغمَ أنه بدا مُقتنعًا بحديثها بعد تذكُّره تحذيرات جدّه أيضًا، والكابوس الذي رآه كثيرًا وتجاهلَه، فتح هاتفه قائلًا «سأحجزُ غرفتين في فندقٍ أعرفه، ومكانين في القطار المتّجه للإسكندرية»، ابتسمتْ لأنّها نجحتْ في إقناعه حتى وإنْ حاول إظهار العكس، خرج من الغرفة فعادتْ برأسها للخلف، تابعت النقوشَ المحفورة في السقف بإعجابٍ، ظلّت تُتابعها فسنحتِ الفرصة للنُّعاس أن يتسلّل إلى عينيها. دخل ليُخبرها بموعد السفر فابتلع حروفَه وتسمّرتْ عيناه على وجْهها، جمالها لا تُخطئه عيْن، لكنّه للمرّة الأولى يلاحظ الراحة– التي تنتشرُ في أوصاله– مِن النّظر إلى وجهها، كان يتجنب النظر إليها؛ كي لا يُسرّ شيئًا بينَه وبين نفسه عنها فتسمعُه، أصبح ممتنًّا لكوْنها نائمة؛ لكيْلا تسمع ما يدور في رأسه الآن، تعجّب من هذا الشّعور الذي يتسلل إلى قلبه بلا استئذانٍ! لكنّه طرد هذه الأفكار واقتربَ ليوقظها فتسلّلت إلى أنفه رائحة، يشمّها كلما اقترب منها، يشعر أنّه جالسٌ في حقلٍ من الكرْز، كلّما نظر إلى عينيها الزرقاوين شعر بأنّه يتأمّلُ السماء، لا بل يُحلِّقُ فيها! نهرَ نفسه، غضّ بصره ثمّ ناداها بهدوءٍ فلم تسمع، رفع

صوتَه ففتحت عينيها، مرت ثوانٍ وهي تنظرُ للمكان بريبة، يبدو أنّها فقدت الذكراة للحظاتٍ ثمّ عادت إليها تدريجيًّا فانبسطَ وجْهها، قال وهو يهربُ من الغرفة قبل أن تقبضَ عليه مُتلبّسًا بالتفكير فيها:

– سيتحرّكُ القطارُ بعد ساعتين، علينا أن نتحرّك نحو المحطة الآن.

***

شمسُ الظّهيرة تسطو على السماء، نشرت جيوش أشعّتها على الأرض، تحرقُ كلّ ما يقع تحت يديها، كما تحرقُ رأسيهما وهُما يبحثان عن عنوان عارف، استظلّا بشجرةٍ تحتها مقعدٌ خشبي، قعدتْ تلهث قائلةً «لم أعتدْ على هذا الحرّ، كيف تتحمّلونه؟!»

نظرَ لوجهها فوجدَ الشّمس قد صبغته بالحمرة، ابتسمَ فنظرت إليه رافعةً أحد حاجبيها، أشاحَ بصره عنها وهو يجبر نفسَه على التفكير في أيّ شيءٍ عداها، سألت:

– ماذا سنفعل الآن؟

قال:

– سنعودُ لنسأل عنه أشخاصًا أكثر.

تجلّى التأفُّف في صوتها وهي تقول:

– جميعُ مَن سألناهم حتى الآن نصفهم لا يعرفه، والنصف الآخر يقول إنّه غادر المنطقة منذُ سنوات، ولا يعلم إلى أين، ماذا لو غادر الإسكندرية أو حتى غادر مصر؟ يا إلهي!

قال محاولًا تهدئتها:

– مهلًا مهلًا.. لم تتحدّثين بيأسٍ هكذا؟ لقد نشطت للأمر عمّا قبل بسببك، سنجدهم، لنْ نغادر الإسكندريةً قبل أن نعرف مكانهم، أعَدُك بذلك.

مطّت شفتيها، ثمّ سألت:

– كيف ستفعلُ ذلك؟

أجاب بلمسةٍ من الزهو:

– لا تعرفين شيئًا عنْ دائرة معارفي، معنا اسمُ عارف الثلاثي وعنوانه القديم، لم أطلب من أحدٍ شيئًا من قبْل، أظنّ الوقت قد حان.

انفرجتْ أساريرها وقالت:

– إذًا أيُمكننا أنْ نعود الآن للفندق؟

عادَا للفندق، تحمّمت ثمّ خلدتْ للنوم، أمّا هو فلم يُبدّل ملابسَه، أعطى أحد معارفه اسمَ عارف وعنوانه وبعضَ المعلومات التي يعرفها عنه، ثمّ تمدّد في الفراش وأذعن لسلطان النوم.

***

حلّت بشائرُ الصّباح، أيقظها رنينُ هاتفها، تحسّست يدُها طريقها نحو الهاتف، نظرت في شاشتِه بعينٍ واحدة ناعسة، وحينما قرأتِ الاسم اعتدلت من نومتها سريعًا تسأل:

– أوصلتَ إلى عنوان عارف؟

أجابَ «ليس بعد.»، ثمّ سأل «هل أيقظتُك؟»

أجابتْ بصوتٍ ناعس «أجل».

اعتذرَ، فقبلت اعتذارَه، وسألت «أكنت تُريدُ شيئًا؟»

بدَا مُتردّدًا وهو يقول:

– لقد خرجتُ للشّرفة فوجدت الجوّ لطيفًا، ظننت أنّ بإمكاننا أن نتنزه على الشاطئ قليلًا، لكنْ آسف.. لم أكنْ أعلم أنّكِ نائمة.

قالتْ وقد بدأت تتمطّى وتنفضُ آثارَ النوم عن جسدها:

– فكرة رائعة، سأُبدّل ملابسي.

ردّ بفرحٍ:

– حسنًا، سأنتظركِ في البهو.

انتظرَ في البهو، وعينُه تطوف في المكانِ إلى أنْ وقعت عليها تهبط الدرج ثمّ تقترب منه، تمشي الهُوينى باسمةً فمسّ سحرُ عينيها قلبه، سرى الخِدرُ في جسده واختفى الناس من حوْله، أصبحَا وحدهما وها هي تقتربُ لتُشاركه رقصةً في حقل الكرز، يشمّ رائحته ويشعرُ بحلاوته في فمِه كلّما اقتربت، يجهل ما يحدثُ لقلبه! لم يشعر بهذا نحو امرأةٍ من قبْل.

«شمس!» أيمكن أن يعشق أحدٌ حروفَ اسمه لمجرد سماعها من صوتٍ يحبه؟! نظرت إليه بريبةٍ ثمّ رفعتْ حاجبيها تدريجيًّا فتذكّر موهبتها، أخذ يهزّ رأسه؛ ظنًّا منه أنّه هكذا سيطرد الأفكار منها! لوّن الخجلُ وجهه، فرفعت عنه الحرج، وتظاهرتْ بأنّها لم تسمع شيئًا، قالت وهي تتقدّمه:

– هيّا بنا، أشتاقُ لرؤية الشاطئ.

تجري كطفلةٍ ترى البحرَ لأوّلِ مرةٍ في حياتها، فلحقَ بها وقد انتقلت عدوى السعادة والضّحك إليه، خلعتْ حذاءها وتركت الموجَ يغمر قدميها، تفرّسته في صمتٍ؛ حينما سمعتْ ما يجول في خلده، ولمّا رأته يطردُ الأفكار بهزّ رأسه ثانيةً ضحكت، ثمّ قالت:

– لقد حكى جدّي كثيرًا عن شاطئ الإسكندرية، كنّت أسمع معه أغنية فيروز فأشعرُ بنسمةِ الهواء وأسمع صوتَ الموج وأشمّ رائحة البحر، اكتشفتُ الآن أنّ خيالي خصبٌ، لقدْ رسمت في رأسي كلّ هذه التفاصيل وكأنني كنتُ هنا من قبْل!

نظرتْ للبحر بحزنٍ وهي تُتابع:

– تمنّيتُ أن أزُوره برفقة جدّي.

تشاركَ معها الشجون قائلًا:

– أنا أيضًا كلّما ذهبتُ لمكانٍ تمنّيت أن تكون أمّي وأبي وجدّي معي، ربما أصبحوا غائبين عنِ الدنيا، لكنّهم سيظلّون حاضرينَ في قلوبنا.

تنهّدت ثمّ قالت:

– معكَ حقّ.

سألها:

– أتودّين الجلوس؟ هل أحضر كرسيًّا؟

سألتْ بابتسامة رقيقة:

– أيمكن أن نجلسَ على الرمال؟

انتقلتْ إلى ثغره عدْوى الابتسام، جلس على الأرض فجلستْ جانبه، سألته عن أغرب القضايا التي حلّها، ففتحتْ هذه القضية المجالَ لهما ليتطرّقا للحديث عن حياتهما، استرسل في الحديث عن نفسه، كما فعلت هي أيضًا، بينما أبتْ حروفها أن تفصح عن الأيام التي عاشتْها مع يعقوب، جفّ حلقُهما، فنهض شمس يشتري مشروبًا باردًا وتركها تتأمل جمالَ البحر والسماء، وبعد قليلٍ عاد إليها فَرِحًا يزُفّ البُشرى:

- لقد حصلتُ على عنوان عارف.

❋❋❋

هل فهمتَ الآنَ الحكمةَ من كَوْن عمر
الإنسان لا يتجاوز الثمانين على الأغلب؟

لوْ عاشَ الإنسان مائتي عامٍ لجنّ من فرْط
الحنين إلى أشياء لم يعدْ لها مكان.

أحمد خالد توفيق

## (٧)
# استغُمّاية

يقفانِ أمامَ باب الشقة التي استطاع شمسُ الوصولَ إلى عنوانها، القلقُ يغمر قلب زهرة فسألت:

– ماذا سنفعلُ إذا كان العنوان خاطئًا؟

أجاب:

– بالتّأكيد سنُعيد البحث، قلبي يحدّثني أنّه صحيح هذه المرّة.

ردّت بصوتٍ يشوبه الشك:

– أتمنّى ذلك.

طرقَ الباب فلم يسمعا ردًّا، كرّر طرقه بقوةٍ أكبر، فسمعَا خطواتِ أقدام ثمّ امرأة تسأل «مَن الطارق؟»، أجابتْ زهرة «هل هذا منزلُ المهندس عارفً القناوي؟» وعلى الفورِ فُتِحَ الباب، ومثلت أمامهما فتاةٌ سمراءُ البشرة، بملامح دقيقةٍ كأنما نطقت بها معابدُ الفراعنة، متوسّطة الطول والقوام، لّما رأتْ «شمس» خبّأت الخصلاتِ الصغيرة المتمرّدة من شعرها أسفلَ حجابها، ونظرتْ لهما باسمةَ الثّغر؛ فابتسمَا، وقبل أن ينطقَا قالت بثقة «لقد كنّا ننتظرُكما»، تلقّفت عيونهما الحيرة فسألت «أنتُما زهرة وشمس، أليس كذلك؟» أسرتِ الدّهشةُ عيونهما وهما يُجيبان بإيماءةٍ من رأسيهما، أفسحتِ الطريق قائلةً «تفضّلا بالدّخول»، تَبِعاها إلى صالةِ البيت، قعدَا على الأريكة وقعدت على

كرسيّ أمامهما، مازالت تحتفظُ بابتسامتها وبشاشة وجْهها، استأذنت منهما ودخلتْ إحدى غرف البيت، فنظرتْ زهرة لشمس، وهمست:

- كيف عرفتِنا؟! وماذا تعني بـ «كُنّا ننتظرُكما»؟ مَن كُنّا؟!

همسَ بنفس حيرتها:

- حضرتُ الموقف معكِ يا زهرة! كيف لي أنْ أعرف الإجابات؟! انتظري، ستعودُ الآن ونسألها عن كلّ شيء.

عادتْ من الداخل، جلست وهي تقول:

- لقدِ اتّصلتُ بـ «حسين»، دقائق وسيكون هنا.

ألحّت تساؤلاتُ رأس زهرة على لسانها فنطق بها:

- مَن حسين؟ ومن أنتِ؟ لم نتعرّف!

ضحكتْ بخجلٍ قائلةً:

- آسفة، نسيت أن أعرِّفكما بنفسي، أنا «حسناء» توأم أخي «حسين»، حفيدَا المهندس عارف القناوي.

وبتلقائيةٍ نظرتْ زهرة نحو عنقِها، ففهمتْ حسناء سببَ نظرتها وقالت:

- أنا لا أرتدي الحجَرَ يا زهرة، إنّه في عنقِ أخي.

قالتْ زهرة بدهشةٍ:

- أفهمُ من هذا أنّكما تعرفان بأمر الحجَر؟

أومأتْ ثمّ قالت:

– لقد حكى جدّي كلّ شيءٍ عنه، كما أوصانا أنْ نعيده لموطنه وننهي لعنته للأبد، وحكى أيضًا عن هذه اللّحظة وعنكما، لأنّه...

أكملتْ زهرة الجملة:

– كانت تأتيه رؤى بالمستقبل.

أومأتْ حسناءُ ثمّ اختفتِ ابْتسامتها، وكسَا الحزنُ ملامحها وهي تُكمل:

– لكنْ رحمَه اللهُ لم يعطِه الموتُ الفرصة ليُكمل النبوءة.

تمتمَا بحزنٍ «رحمه الله»، عادتْ لابتسامتها وهي تسأل «أتُفضّلان عصير الليمون أم مشروبًا ساخنًا؟» لم يُجيبَا، بل جحظَا أعينهما فجأة، بدا أنّهما يتعرّضان لنوبة اختناق، اقتربت بقلقٍ تسأل عمّا بهما؟ لقد كان جسداهما يرتعدان كأنّ الكهرباء تصعقهما، سمعتْ صوت ارتطامٍ قويّ عندَ باب الشقة فأسرعت نحوه، لتجدَ «حسين» ينتفض على الأرض كعصفورٍ قنصَه الصياد للتوّ، ويصارع خروجَ الروح! صرخت بلوعةٍ ثمّ جلست جانب جسده، تُناديه بهلع، ألقتْ نظرة خاطفة نحوَ شمس وزهرة فوجدتهما ينتفضان كأخيها على الأرض.

***

تضعُ كئوس عصيرِ الليمون أمام ثلاثتهم وهي تسألُ عن حالهم، لقد عادوا لطبيعتهم بعدما اقتربوا من الموت أمامَ ناظريها. نظرَ شمس إلى حسين، شابّ يبدو في بداية الثلاثينيات، عريضُ المنكبين، قويّ البنية، توأمٌ مُطابقٌ

لأخته في كلّ شيءٍ حتى الملامح، إلّا أن ملامحه بها غِلظة وخشونةُ الرجال، قال شمس:

– حينما التقينا أنا وزهرة في المرّة الأولى حدثَ لكليْنا ما حدثَ لثلاثتنا منذ قليل.

عقّبت زهرة:

– لكنْ هذه المرّة أشدّ من السابقة، لقد شعرت بأنّ بيني وبين الموت قاب قوسين أو أدنى.

فردّ حسين:

– ربّما لأنّ هذه المرّة اكتمل الحجَر، أخبرني جدّي بكلّ ما حدث من قبل، وأن لحظة اكتمالِ الحجَر مؤلمة، وبما أنّنا اجتمعنا، علينا أن نُسرع خطواتنا أكثر؛ لأن الخطر يصبح وشيكًا كلّما زادت مدّة اجتماع الأجزاء بالقرب من بعضها، أيمكنكما أن تُقرّبا القلادة مِن قلادتي؟

نفّذَا طلبه فظهرتِ الدّهشة على ملامحه، رمقهما بحيرةٍ ثمّ سأل:

– هل قام أحدُكما بكسر حجره؟

تبادلَا نظراتٍ مُبهمة، ثمّ أجابَا في نفس اللحظة «لا». تابع شمس سائلًا:

– لماذا تسأل سؤالًا غريبًا كهذا؟!

فقالَ «لحظة وسأعود»، دخل إحدى الغرف ثمّ عادَ ومعه دفتر مهترئ، قلّب صفحاته برفقٍ وهو يقول «لقد رأيتُ رسمةَ الحجَر قبل أن يقوموا بتقسيمه، انظرَا».

نظرًا للرسمة ثمّ قرّب ثلاثتهم الأحجارَ من بعضها مرّة أخرى فصدّقا على كلامه؛ هناك جزءٌ ناقصٌ من الحجر.

تابعَ حسين:

– كما أنّه من المفترض أن تتوهّج الأجزاءُ كلّما قربناها من بعضها، إن كانت مكتملة!

ارتدّ جسدُ زهرة إلى الخلفِ بغضبٍ، ثمّ صاحت مُعترضةً:

– أمعنى هذا أنّ هناك رابعًا؟ لكنْ كيف؟! لقد أخبرني جدّي أنهم كانوا ثلاثة، ورابعهم فقدوه في الكهف.

صدّقت حسناء على كلامها قائلةً:

– هذا ما أخبرنا به جدّي أيضًا.

رمقتْ زهرة «شمس» و«حسين» بيأسٍ سائلةً:

– ماذا سنفعل الآن؟!

فأجابَ حسين موجِّهًا حديثه لشمس:

– الإجابة عند جدّك يا شمس، قال جدّي إنّنا سنجد كلّ ما يرشدنا لموطن الحجر عنده.

ردّ شمس:

– لكنّنا ذهبنا لبيتِه بالفعل ولم نجد شيئًا!

فقالتْ حسناء:

– لقدْ كنتما اثنيْن تبحثان، والآن أصبحنا أربعة، بالتأكيد سنجد شيئًا إذا أعدْنا البحث سويًّا.

أومأ أخوها ثمّ قال:

- حسناءُ معها حقّ، لم نعدْ نملك رفاهية الاختيار!

نظرَ شمس إلى زهرة، وجدَها تؤيدُ رأيهما فقال:

- حسنًا، لننهي هذا الأمر الليلة.

***

وصلَ أربعتهم إلى البيتِ بأجسادٍ أوهنها وعثاءُ السفر، أشار شمس للفتاتين نحو غرفة والديْه لتستريحَا فيها، واختار حسين الأريكةَ الموضوعة في الصالة، أمّا هو فدخل غرفة جدّه، طرحَ التعب جسدَه على الفراش، وسرقَ النُّعاس النورَ من عينيه، راح في سُباتٍ عميق إلى أنْ أفزعه كابوس النهاية، فجلس يلتقط أنفاسَه اللاهثة، سمع صوت حسين عاليًا في الصّالة، فخرج إليه، وجدَه يتحدّث في الهاتف ويبدو من حديثه أنّه يطلب إجازةً من عمله، فتذكّر شمس أنّه لم يطمئنّ على الجريدة، لقد ترك كلّ شيءٍ في أيدٍ أمينة وتفرّغ لإعادة الحجَر، ولا يعلم هل بعدَ إعادته سيستمرّ ما وصل إليه أم سيصبح هباءً منثورًا؟ اطمأنّ على الجريدة، وأنهى بعضَ مكالمات العمل ثمّ قعدَ جانب حسين، أراد أن يتمسّك بأطرافِ الحديث فسأله عن وظيفته، أخبرَه حسين أنّه يعمل مهندسًا مدنيًّا في شركة صغيرةٍ بالإسكندرية، ثمّ تحدّث شمس عن عمله دونَ أن ينتظر سؤالَ حسين، جلسا وكأنّ على رأسيهما الطيرَ للحظاتٍ إلى أن بدّل حسين صمتهما بسؤاله:

- رأيتَ كابوسًا بنهاية العالم، أليس كذلك؟

فأجابه شمس بسؤالٍ:

– هل تراهُ مثلي وزهرة؟

أومأ حسين قائلًا:

– أجل، بدأتُ رؤيته في ذاتِ اليوم الذي نسيتُ فيه وصية جدّي، وقررتُ بأنانيةٍ الاحتفاظَ بالحجَر، أظنّنا لن نتخلّص منه حتى نجد الجزء الناقص.

عادَا لصمتهما إلى أنْ سأل شمس:

– لم أسألك من قبْل.. ما الموهبة التي اخترتها؟

خُطف لونُ وجهه، وأطرق رأسه بحزنٍ، فعقد شمس حاجبيه، وسأل «هل أنت بخير ؟»

أومأ بنعم، ثمّ وقف وهو يقول «تمسّك جيدًا»، لم يُمهله الفرصة ليفهم قصده، رفع الأريكة بيدٍ واحدة، أفزعتِ المفاجأة «شمس»، وكاد يسقطُ من فوق الأريكة، تمسّك جيدًا وهو يقول «ماذا دهاكَ يا حسين؟ أنزلني!»، أنزل الأريكة بهدوءٍ وقعدَ كما كان بنفس الهدوء، أمّا شمس فظلّ يُحملِقُ فيه بريبةٍ، ومازالت الدهشة تأسرُ وجهَه، تحدّث حسين مُطرقًا:

– لم يكنْ لي الخيار كما لم أكنْ أريد ارتداءَ القلادة، فعلت مُضطرًّا واخترت القوّة لأنقذهما.

زفرَ شمس بهدوءٍ، ثمّ سأل «تنقذ مَن؟!». تنهّد حسين ثمّ قال:

– في العام الماضي، سافرنا أنا وحسناءُ مع جدّي إلى صعيدِ مصر، عرضتُ عليه أن نستقلّ القطار لكنّه أصرّ أنْ نسافر بالسيارة، كان توقيتُ السفر غريبًا، بعدما انتهينا من الزيارات لبيتِ أقاربه قعدنا أمامه في حديقة البيت، حكى

كلّ شيءٍ عن الحجر، أظنك تعلم أنّه كان يرى المستقبل، أخبرَنا عنكما؛ فلا عجبَ عند رؤيتكما، لقد حمّلنا أمانة الحجر، يومَها أخبرته بأنني لن أرتدي القلادةَ أبدًا، سأحتفظ بالحجر حتى أُعيده لموطنه، أذكر ابتسامتَه الهادئة وهو يقول «بل سَترتديه يا حسين، والأمرُ ليس ببعيد» لم أفهم قصده كما لم أُعقّب على قوله، أخبرنا بأنّه سيغتسل، وبعدها سنعود إلى الإسكندرية، فاعترضت وطلبتُ أن ننتظرَ الصباح، أصرّ مُردّدًا «سنتحرّك الليلة، لا أحد يهرب من قدره» سكت برهةً، ثمّ قال «إيّاك أن تلومَ نفسك»، ولمّا سألته عن قصده لم يُجب! اغتسل ثمّ خرج إلى السّيارة دون أن يتفوّه بكلمة، كنت أقودُ وهو جانبي وحسناء تجلس في الأريكة الخلفية، قلبي لم يكنْ مُطمئنًّا كحال قلبها، تبادلنا النظراتِ الحائرة في المرآة، عكس جدّي الذي يجلسُ آمنًا مُطمئنًّا، وفي منتصف الطريق طلبَ من حسناء أن تُبدِّل معه الأماكن ليأخذ قسطًا من النوم، جلستْ جانبي فذكّرها بحزام الأمان، ربطت الحزامَ وهي تنظر لي بريبة، ولمّا تأكدنا من نومِه تهامسنا عَن خوفنا من حديثه، حاولت طمأنتها بيْدَ أنّ القلق يأكل قلبي! انشغلتْ بهاتفها وانشغلت بالطريق، لم أكن أشعرُ بالنعاس، لا أعلم كيف غفوت فجأة، غفوة واحدة عُدتُ منها على الكارثة، انقلبتِ السّيارة عدّة مرات، آخر ما رأيته قبلَ أن أغلق عيني هو وجهُ حسناء مُضرجٍ بالدماء، وآخر ما سمعته هي أنّاتها، فتحت عيني وتمنّيت أن يكون آخر ما رأيت كابوسًا، لكنّي وجدت نفس المشهد، حاولت نزع الحزام من مقْبَسه فلم أقوَ على رفع يدي اليُمنى، نظرت لها فوجدتها بلا حراكٍ والدماء تغطي وجهَها، ناديت جدّي فخرجَ صوتي واهنًا، بكيت بحرقة، شعرت أنّ الدنيا تكالبت على قوّتي فمزّقتها وتركتني مهزومَ القوى، لا شيء يتحرّك في جسدى سوى يدي اليسرى وعينين تتحرّكان بفزعٍ، ظللتُ أناجي الله وأكرّر

محاولاتي، رفعت يدي- الوحيدة التي تتحرّك- فاصطدمت بشيءٍ في جيبي، تذكّرت الحجَر، وعلى الفور أخرجته، تحاملتُ على نفسي ورفعتُ يدي بالقلادة إلى عنقي، ارتديتها بشقّ الأنفس، لم أتوقع أن ارتداءها سيؤلمني لهذا الحد! ظننتُ أنني أحتضر، إلى أنْ سكنت آلامي ولا أعلم كيف! وقتها تمنيت القوّة، استطعت بها إنقاذَ حسناء، بيدَ أنّ الموت سبقني وخطف جدّي، فهمت في تلك اللّحظة قصده، فقدْنا جدّي ومُرِّضت حسناء لأشهر في المستشفى، تعجّب الأطباء حينما فحصوا جسدي، ولم يجدوا فيه خدشًا يُفصِحُ عمّا حدث لي، بل كانت معدلات جسدي تفوقُ البشر الطبيعي! شُفيت حسناءُ وعدْنا لحياتنا، لكننا لم نستطع الشفاء من فاجعة فقدان جدّي.

ربّت شمس على كتفه قائلًا:

- أعتذر، أعدتُك بسؤالي إلى ذكرى سيئة.

ابتسمَ حسين بمرارةٍ وقال:

- لم أخرجْ منها حتى تُعيدني إليها! لا تعتذر؛ أنا بخير.

حاولَ التّخفيف عنه فقال مُداعبًا:

- إذًا، أنت «سوبر مان» عصرنا الحديث؟

ضحكَ حسين قائلًا:

- أجل يا صديقي تنقصني بدلته.

تابعَ شمس دُعابته قائلًا:

- لكنْ أظنّك في مصر ستحتاج للكثيرِ من التعديلات على هذه البدلة.

فهمَ حسين ما يرمي إليه، فقهقه، خرجتِ الفتاتان من الغرفة، قالت زهرة:

- ألن تُضحكانَا معكما؟

تصنّعَ شمس الجدّية قائلًا:

- سأخبركِ عندما تكبرين.

عقدتْ ذراعيها أمامَ صدرها وهي تنظر إليه بمكرٍ قائلةً:

- يبدو أنّك نسيت موهبتي!

نظرَ إلى حسين قائلًا:

- صحيح، نسيتُ أن أحذّرك أنها تسمع الأفكار.

نظرَ التوأم لها بدهشةٍ فقالت:

- سأخبركم عنْ أوّل يوم لي مع هذه الموهبة.

قعدتْ على أحد كراسي الخوان، وسحبتْ حسناءُ آخرَ، ثمّ قعدت جانبها، ظلت تحكي لهما عن مقابلة العمل، ثمّ تسلّم شمس دفّة الحديث وحكى عن موهبتِه وأغرب القضايا التي حلّها، ومن بعده حسين.. جلسَ أربعتهم يتسامرون في جوّ من الألفة، كانت حوائط البيتِ فرحة بهذا الجمع، وقد ملّت السكونَ واشتهتْ ضجّة الضحكات، تلكَ التي تُذكّرهم بمَن خرج هؤلاء الأربعة من أصلابهم.

بعدما انتهتْ جلسة السمر، اجتمعَ أربعتهم حول الخوان، وأخرج كلّ منهم ما تركه جدّه، شاهدوا فيديو فاروق، ثمّ انتقلوا إلى مفكّرة عارف، التي لم يجدوا فيها سوى رسمة الحجَر، وبعض الملاحظات الخاصّة به، ولا علاقة لها بما يبحثون عنه، ثمّ انتقلوا إلى مخطوطاتِ شمس، أخبرتهم حسناء أنّ صديقتها متخصّصة في اللغات، سترُسلُ إليها وتسأل عنْ هذه اللغة، ثمّ قال حسين:

– جدّي، رحمه الله، ذكر أيضًا أمرَ البوابة المكانية التي تحدّث عنها جدّك يا زهرة، لكنّه لم يحْكِ تفاصيلَ ما حدث، ونحن لم نسأله يومها، ربما لأنّ الصدمة كانت تأسرنا بعد ما سمعناه منه!

نظرَ لشمس وسأل:

– ألم يتركْ لك جدّك سوى المخطوطات؟

بحثَ عن الخطابِ في الحقيبة القماشية ووضعَه في منتصف الخوان قائلًا:

– لم يتركْ سوى المخطوطات والقلادة، وهذا الخطاب.

التقطَه حسين وقرأ ما فيه بصوتٍ عالٍ، فقالت حسناء:

– لا أظنّه خطابًا عاديًّا كما تزعم يا شمس، أعتقدُ أنّ به لغزًا، وأظنه في لعبة «الاستغماية».

فعقّبت زهرة:

– أجل، أتّفق معها، وإنْ لم تكن كذلك فلمَ ذكرَها وقال إنّ الإجابات فيها؟!

زمّ شفتيه وانحرفَ بؤبؤا عينيه نحو أعلى اليمين؛ وهو يُحاول استحضار ذكرياته مع جدّه، وكأنّ طيفه وطيفَ جدّه خرجَا من ذكرياته وتمثّلا أمامه، رآهما يقفان عند باب غرفة المكتب، انحنى جدّه وهمسَ في أذنه «أترغبُ في لعب (الاستغمّاية)؟» أومأ فرحًا فقال الجدّ «إذًا عُدّ عشرة إلى أنْ أختبئ».. عدّ إلى العشرة، ثمّ دخل إلى الغرفة؛ يبحث عن جدّه فلم يجدْه، بحثَ في كلّ غرف البيت، ثمّ تفاجأ به يخرجُ من غرفة مكتبه، التي فتّشها جيدًا منذُ قليل! تكرّرت لعبتُهما وتكرّرت فعلة جدّه، فقرّر شمس أن يكون ماكرًا ذات مرة،

عدّ مُفتّحَ العينين، لقد رأى جدّه يدفعُ المكتبة الموجودة خلف مكتبه، وكأنّها بابٌ لغرفةٍ أخرى داخلَ غرفته، بعدما دخل جدّه وأغلق البابَ حاول أن يُقلّده، فلم يستطع دفعَ المكتبة، ظلّ منتظرًا جانبَها، خرج جدّه وتفاجأ به أمامَه يقول بفرحة انتصارٍ «لقد علمتُ أينَ تختبئ يا جدّي»، ضحك، حمله وأخذَ يدغدغه فجلجلت ضحكاته، قعد الجدّ خلف مكتبه، وجاوره الصغيرُ على المكتب وهو يهمسُ له «هذا سيكون سرّنا يا شمس، إيّاك أن تخبرَ أحدًا بالمكان الذي أختبئ فيه، اتّفقنا؟» سأل الصغيرُ ببراءةٍ «حتّى ماما؟» فأجاب «حتى ماما»، أومأ هامسًا «حسنًا سأحفظُ سرّنا»، قبّل الجدّ ناصية الصغير ثمّ أخرج مالًا من جيب عباءته، وقال «خذْ هذا المال وضعه في حصّالتك».

نهضَ من مجلسه ينظر لهم متّسعَ العينين، ركضَ نحو غرفة المكتب، تبعوه إلى الداخل، رغم أنّهم لم يفهموا شيئًا، عدا زهرة، التي سمعت كلّ ما يدور في خلده، اتّسعت أعينهم حينما رأوا بابَ الغرفة السريّة، صفّقت حسناءُ بفرحٍ، ورقصتْ زهرة وهي تغني بالإنجليزية، اقتربَ حسين من شمس ضاحكًا بفرحٍ، ضربَ كتفه فتأوّه شمس قائلًا «مهلًا سوبر مان ستخلع كتفي!».

وجدوا الغرفةَ مرتّبة، بها مكتبةٌ أكبر من الأخرى، وأريكة خشبية، استقبلتهم خيوطُ العنكبوت التي تسْطو على ملامحِ المكان، هدم شمس بيتَ العنكبوت، الذي استقبلهم عند الباب، فقالتَ زهرة «أهكذا تفعلُ ببيتِ عنكبوتٍ ظنّ أنّك رفيقُه في السكن!»، لم يُعقِّبْ على قولها لأنّ رائحة التراب المتراكم في الغرفة هيّجت صدورَهم، فأصابهم سُعالٌ مُتواصلٌ، دفعَ زهرة إلى الخروج من الغرفة، ثمّ عادتْ إليهم بعدما هدأت، مرّت دقائق ثمّ

اعتادتْ أنوفهم على الرّائحة، بحثوا في أرجاء الغرفة ولم يجدوا شيئًا مفيدًا، إلى أنْ لمح شمس تحتَ الأريكة شيئًا، فانبطحَ أرضًا ورفعَ المفرش فوجدَ صندوقًا من الحديد، وضعه فوق الأريكة، اقتربَ حسين وأمسك بالقفل قائلًا:

– إنّه مغلَق! هل تعرف أينَ المفتاح؟ أم نلجأ للخطة باء؟

قالها وهو يربّت على عضلات ساعدِه، رفع شمس كتفيْه، ونفى بإيماءة رأسه، اقتربت حسناءُ تتأمّل النقوشَ المرسومة على الصندوق، لاحظت جزءًا بارزًا فيها، دقّقت النظرَ وهي تتحسّسه، ثمّ قالت باسمةً «المفتاح هنا»، حاولتْ نزعَه فلم تستطع، توّلى حسين هذه المهمّة وأخرجَه، وقبلَ أن يفتحَ الصندوق قالت زهرة:

– هل يمكنُ أن نفتحه خارجَ هذه الغرفة؟ لم أعدْ أستطيع التنفّس، ولا أظنّ أن هناك شيئًا آخرَ سيُفيدنا هنا.

عادوا إلى الخوان، فتحَ حسين الصندوق، كان مليئًا بالصّور، صور تجمع أجدادهم الثلاثة، وأخرى تجمعُهم برابع، حينما رأتْه زهرة جحظتْ عيناها، ثمّ انتقلت الصدمة ذاتها لشمس وحسين، وفي صوتٍ واحد سألَ ثلاثتهم « أليس هذا الرجل الذي نراه في الكابوس؟!» لقد كان جدّهم شمس الدين يُدوّن اليوم، ويحكي الذكرى خلفَ كلّ صورة، لذا قلَبَت زهرة الصورة فقرأتْ اسمَ رابعهم، نظرت إليهم وقالتْ «إنّه كامل، صديقهم الذي فقدوه في الكهف!»، سأل شمس:

– إذَا كان هذا كامل، ولأوّل مرّة نراه في حياتنا الآن، فلماذا رأيناه في الكابوس؟!

أجابَ حسين:

- ربّما لأنّه كان معهم في الكهف، ونراه لأنّه أوّل مَن أصابه أذى الحجَر.

رجّحت زهرة قولَه، ومِن بعدها شمس، ثمّ تناسوا أمرَ الكابوس، وانشغلوا بصور أجدادهم، التقطتْ زهرة مجموعةً من الصور لتملأ عينيها بوجْه جدّها، تبتسم عيناها قبل ثغرها كلما قلّبت الصور، قرأتْ كلّ ذكرى بعيونٍ لامعة، وقلبٍ أرهقته حُمّى الحنين، من بينهم ذكرياتٌ حكاها جدّها من قبْل، وأخرى تعرفها للمرّة الأولى إلى أن توقّفت عند صورة بها رجلٌ غير كامل، قلبت الصورةَ لتقرأ ما كُتب خلفها، غضّنت زوايا عينيها، نظرت أعلى اليمين، ثمّ عادت تنظرُ للصورة، وفجأة وقفتْ من مجلسها بجسدٍ مُنتفض، التفتَ ثلاثتهم نحوها، وسأل شمس بقلقٍ:

- زهرة، ما بكِ؟ هل أنتِ بخير؟

قالت بحماسٍ:

- أظنّني عرفت أين الجزءُ الناقص من الحجَر.

***

إنّ الغروب لا يَحولُ دون شروقٍ جديد.

كونفوشيوس

(٨)

# عقبة

الثّانيةُ بعدَ منتصف الليل، لا قدم بشريّة تدبّ في المكان، فسَنحت الفرصة للضفادع؛ لتتجول وتقطع السكونَ بنقيقها فيردّ عليها صرصورُ الحقل بصراخه، الظلام يلفّ المكان إلّا من ضوءٍ خافت أصفر، ينبعثُ من عامودٍ يلتصقُ بمنزلٍ قديم من الطين، هرب الضفدع مُختبئًا حينما شعرَ بأقدامٍ بشريةٍ مُتسلّلة نحو هذا البيت، ثلاثةُ رجالٍ يرتدون جلابيبَ وأوشحة علىٰ أكتفاهم مُلثّمين بأحدِ طرفيها، وقف اثنانِ منهم أمام ورشة مُغلقة قريبة من البيت يتلفّتان حولهما، أحدُهما يتابع الطريق، والآخر يتابع ثالثهم، الذي تسلل لباب البيت، وطرقَه برفقٍ فلم يتلقّ ردًّا. كانت طرقتُه التالية قويةً كفاية ليستيقظ رجلُ البيت من نومهِ مفزوعًا راكضًا نحو الباب، سائلًا بقلقٍ عنِ الطارق، الذي ردّ بصوتٍ خافتٍ يكفي ليسمعَه صاحبُ البيت:

- افتح يا عرفة، أنا فاروق.

مازالت سكرةُ النّوم تُسيطر على رأسه؛ فقدْ سكت لحظةً ثمّ سأل باستنكارٍ:

- أيّ فاروق؟!

كزّ الطارقُ على أسنانه قائلًا بنفادِ صبرٍ:

- فاروق درغام يا عرفة، افتح الباب بسرعة.

ردّ وهو يفتح الباب:

- اللّهم اجعله خيرًا، ماذا تريدُ في هذه الساعة يا فاروق؟!

طلبَ منه أن يخفِضَ صوته، ثمّ أخبره أنّه ينتظرُه أمام ورشته لأمر هامّ، تركه مذهولًا أمام بابه ولحقَ بصديقيْه، ثلاث دقائق كانت كافيةً ليسترَ عرفة جسدَه بجلبابه ويقفَ أمامهم سائلًا:

- ماذا تفعلون هنا في هذه الساعة؟!

ردّ أحدهم:

- افتحِ الورشة أوّلًا، لنتحدث في الداخل.

سألَ عرفة، ومازال مذهولًا:

- أنتَ شمس الدين، أليس كذلك؟! لمَ تُخفون وجوهكم بهذه الأوشحة؟ أنا لا أفهم شيئًا! ثمّ أينَ كنتم؟لمَ نراكم منذ مدةٍ في القرية!؟

لكزَه عارف في كتفه قائلًا:

- لا وقتَ للحديث، افتحِ الورشة وستفهم كلّ شيء.

استجابَ لطلبهم، دخل فتبعوه، أنارَ مصابيح الورشة بعد أن أغلقوا بابها عليهم، جلسوا ثمّ خلعوا الأوشحة، استلمَ شمس خيطَ الحديث وقال:

- أوّلًا نعتذرُ لأنّنا أيقظناك في هذه السّاعة المتأخرة، إننا مضطّرون، علينا أن نسافر الليلة، سأسألُك سؤالًا واحدًا، هل تستطيع أن تقسّم هذا الحجر إلى ثلاث؟

قالَها وهو يضع حقيبةً قماشية أمامه، همّ أن يفتحها فأوقفَه ثلاثتهم، فزع من صرختهم ثمّ سألَ بخوفٍ:

- ماذا بكم؟ ما نوعُ هذا الحجر؟!

أجابَ عارف بحدّة:

– لا تسلْ عن شيءٍ لا يخصّك، تفحّصه وهو في الحقيبة.

أجابَ غاضبًا:

– هذا عملي لا دخلَ لك فيه، يجب أن أُخرجَه من الكيس كي أُجيب.

لكزَ شمس عارف ليهدأ ثمّ قال لعرفة:

– معكَ حقّ يا عرفة، عارف لم يقصدْ أن يتدخّل في عملك، كلّ ما في الأمر أنّ هذا الحجَر يمكن أن يؤذي يديك إذا لمسته.

قطّبَ جبينه وهو يسأل:

– أهو حجرٌ بركانيٌّ مثلًا؟!

أجابَ شمس مُرتبكًا:

– شيءٌ مثل هذا، أيمكنُك أن تُسرِع؟ صدّقني لا وقت لدينا.

صمتَ لحظةً ثمّ قال:

– سأفعلُ ذلك، مِن أجلك فقط يا شمس، لا من أجل أحدٍ آخر.

قالَها وهو ينظر لعارف شذرًا، فبادله الآخرُ النظرة ذاتها، عادَ ببصره لشمس قائلًا:

– لا تقلق، لديّ قفازاتٌ عازلة، وآلة ليستْ موجودة في مصر، ورثتهما عن جدّي، أحضرَهما من السودان، ولم أجرّب استخدامهما حتى الآن، ربّما لـ

قاطعَه عارف بحِدّة:

– يا سيدي الفاضل، قلنا لا وقتَ لدينا لنسمع أحاديثك الشيقة.

رمقَه بغضب ولم يُعقّب شمس هذه المرّة؛ فعارف معه كلّ الحق، حملَ عرفة الحقيبة وكاد يدخلُ بها، فسأل فاروق:

- إلى أين؟

فأجاب:

- لنْ أستطيع العمل هنا، الآلة في الداخل.

وقفَ ثلاثتهم، فرفع راحةَ يده قائلًا:

- على رسْلِكم، إلى أين؟! الورشةُ من الدّاخل لا مكانَ فيها إلّا لوقوفِ شخص واحد.

تفحّص عارف الورشةَ من الداخل، فتأكّد من صحّة قوله، خرج وهو يقول:

- حسنًا أسرع، سننتظرك هنا.

وقبلَ أن يدخل سأله شمس:

- عرفة، أيمكنُ أن تصنعَ ثلاث قلاداتٍ بعد أن تقسّم الحجر، وتضع كلّ جزء فيها؟

أشارَ بسبّابته نحو عينيه قائلًا:

- مِن عيني يا شمس، سأصنعهم لكم.

اختفى في الدّاخل، فراقبَ عارف دخوله، ثمّ اقترب من شمس هامسًا:

- ألم أقلْ لكما لنذهب لأيّ صائغ، ما لنا وهذا الحداد الغبي؟!

ردّ شمس هامسًا:

– اصمتْ واهدأ قليلًا، لا يمكن أن يعرف سرّنا سوى عرفة؛ فهو كما قلت غبي ولا خطر منه، ثمّ إنّ جدّه كان صائغًا قديمًا، أيْ لديه الصنعة أيضًا، كما أنّ الحجر شديد الصلابة لن تقسمه إلّا الأدوات التي يمتلكها عرفة.

ظلّ ثلاثتهم يتهامسونَ في الخارج، وتركوه في الداخل مع الحجَر، ارتدى القفّازات ودسّ يدَه في الحقيبة، أخرج الحجرَ بهدوءٍ، وحينما رآه جحظتْ عيناه، ظلّ يُحملقُ فيه ثوانٍ ثمّ سألهم:

– لقد أَلِفتُ الأحجارَ من عملي مع جدّي، إلّا أنني لم يُصادفني هذا الحجَر من قبل، ما نوعُه يا شمس؟

ردّ مُتلعثمًا:

– لـ.. لم نعرف بعدُ يا عرفة.

ثمّ سأل:

–هل انتهيت؟

ضحكَ قائلًا:

– بل قلْ هل بدأت!

أخرجَ الآلة، ووضعَ الحجرَ في المكان المخصّص فيها، نظر بمكرٍ نحو الباب ثمّ بدأ يقسّم الحجرَ لأربعة أقسام، وعندما انتهى خطفَ الجزءَ الرابع من قطب الآلة سريعًا وخبّأه، صنع الثلاثَ قلادات، وخرج عليهم باسمًا:

– ها قد انتهيتُ، تفضّل يا شمس.

التقطَ شمس القلادات بحذرٍ من طرف السّلسلة، طلب منه الحقيبة، وضعهم فيها ثمّ أخرج مبلغًا من المال، وهمّ أن يعطيه لعرفة، فقال:

– ماذا تفعل يا شمس؟ أتسُبّني يا رجل؟!

أصرّ شمس عليه فأخذَ المال، ودّعوه وخرجوا بعد أنْ أعادوا الأوشحة على وجوههم، ودّعهم بابتسامة ساخرة، تأكّد من إغلاق باب الورشة ثمّ اختفى في الداخل، أخرج الحجَر، تأمّله وهو يضحكُ بانتصار، وطافتْ به ذكريات جلسات الجدّة زهرة وهُم صغار، همسَ «يظُنُّوني أبلَهَ لأنّني لم أكنْ كثيرَ الأسئلةِ مثلهم!» أطال النظرَ للحجرِ وتفحّصه ثمّ قال ونشوةُ الانتصار تفوحُ من حروفه «إنّه الحجرُ الأزرق إذًا» وضعه على الطاولة، ثمّ خلعَ القُفّازين وأمسكَ الحجرَ فكأنّما مسّ سلكَ كهرباءٍ عارٍ، التصقَ الحجرُ بيدِه وظلّ جسدُه ينتفض بقوةٍ، ويصطدم بكلّ الآلات حولَه، خرجت عيناه من محجريهما، اختفى بؤبؤا عينيه وتركَا بياضها فارغًا، قلبُه ينتفض، يشعرُ أنّه سينفجر، لم تعدْ قدمه تحمله فسقطَ أرضًا وظلّ جسدُه ينتفض بعنفٍ، فظنّ أنّه يودّع الحياة، لعنَ غباءه ألف مرّة، يشعر بروحِه وهي في طريقها نحوَ الخروج، وفجأة سكنَ جسدُه وعاد النور لعينيه، تحسّس جسدَه بعدم تصديقٍ، ثمّ نظر للحجرِ بخوف.

***

طلعتْ شمسُ الصباح وهُم جالسون في أماكنهم، وقفتْ زهرة من مجلسها وأشهرت الصورةَ أمامهم قائلةً:

– انْظروا للصورة، كيف لم نفكّر فيه من قبْل! إنّه عرفة الحداد، صدّقوني لا تفسير سوى أنّه سرقَ جزءًا من الحجر، حينما كان يقسّمه لأجدادنا.

كان الصمتُ سيدَ الموقف، ثمّ أيّدها حسين قائلًا:

– زهرة معها حقّ، لم يعرفْ بأمر الحجر سوى أجدادنا وصديقهم كامل، وهذا نستبعده لأنّه مات، وبعدَها لم يرَ الحجر سوى عرفة حين قسّمه لهم.

قُذفت الفكرة في أذهانهم، فوقف شمس قائلًا «زهرة وحسناء، انتظرَا هنا، تعالَ معي يا حسين».

وقفَ سائلًا «إلى أين ؟»، فأجابه وهو يسيرُ نحو باب البيت «سأُخبرك في الطريق».

وقفَا أمام بيتٍ قريب من بيت جدّه، طرقَ شمس البابَ ففتح عجوزٌ، وما إن رأى شمس تهلّلت أساريره، وفتح ذراعيْه يستقبله قائلًا:

– أهلًا بحفيد الغالي.

بعدَ السّلام نظرَ الرجلُ لحسين، فقال شمس:

– إنّه حسين؛ حفيد المهندس عارف يا حاج فتحي.

اتّسعت ابتسامتُه وضمّه وهو يقول:

– أهلًا برائحةِ الأحباب، صدق مَن قال «لم يمتْ مَن أنجب».

ابتسمَ شمس وسأل:

– أيمكنُ أن نجلس معك قليلًا، أم سنُعطّلك يا حاج؟

فقالَ باستنكار «أتستأذن!»، ثمّ تهلّلت أساريره وهو يُرحِّبُ بهما «ادخلَا، يا مرحبًا بكما حلّت البركات». تبعاه لصالة البيت، قعدَ أمامهما يتحدّث في أمورٍ عامة، بينما شمس يُفكِّرُ في طريقةٍ يسأله بها عن عرفة، سمعَ الرجل يتحدَّث عن صحبته بأجدادهم قديمًا فانتهز الفرصةَ وقال:

- لقدْ رأينا صوركم معًا، وتمنّينا أن نلتقي بباقي مَن رأيناهم في الصور، الجدّ كامل رحمه الله، وهناك أيضًا الحاج عرفة الحداد.

لمعتِ الذّكريات في عيني الرجل، لاحتِ ابْتسامة على شفتيه ثمّ قال:

- رحمه اللهُ كامل، كان ونعْمَ الرّجال، لا يفرق عن أخلاق جدّكما، لم يكن هو وجدّكما وفاروق يفترقون أبدًا، أينما ذُكر اسمٌ منهم ذُكر الثلاثة الباقون، ذات يوم اختفى الأربعة من القرية فجأةً، ثمّ عادوا ثلاثة، أخبرنا شمس بموت كامل، حزنت لموته كثيرًا، رحمه الله وموتى المسلمين.

تمتمَا «آمين»، ثمّ تابع حديثه «أمّا عرفة هذا فينطبقُ عليه قول «سبحان مُغير الأحوال»..

سألَ شمس «كيف؟».

فأجابَ فتحي:

- كان يمتلك ورشةً هنا في آخر الشارع، ورثها عن جدّه وأبيه ويسكن في بيتٍ طيني، بالكاد يمتلك قوتَ يومه، فجأة اختفى من القرية، أذكر أنّه اختفى بعدَ سفر فاروق وعارف.

سألَ حسين مُقطّبًا جبينه:

- اختفى! مثل كامل؟

أجاب مُفسِّرًا قوله:

- لا.. لا، استيقظنا صباحًا فلم نجدْه في بيته ولا ورشته، ترك القريةَ ومعه أسرته ثمّ عاد بعدَ سنواتٍ يركب أحدثَ سيارة، ويرتدي ثوبَ البشاوات،

ويوزّع المال على فقراء القرية، قيل إنّه ورثَ عن أجداده، والبعض قال إنّه وجدَ مقبرة فرعونية تحت بيته، وأنا أظنّ الثانية هي الصحيحة.

نظرَ شمس وحسين لبعضهما في صمتٍ ثمّ سأل شمس:

– أتعرف أين يمكنُ أن نجده؟

أجاب:

– منذُ ثلاث سنوات تقريبًا أتى ابنُ ابنته إلى هنا بجثمانه؛ لأنه وصّى أن يُدفن في قريته.

سأل حسين:

– أتعرف أينَ حفيده؟

قال:

– لا أعرف أين هو، لكنْ رأيته منذ أيامٍ على شاشة التلفاز في إعلانٍ لشركته أعتقد كان اسمها...

صمتَ وهو يُغضِّنُ زوايا عينيه، ثمّ نادى حفيده– صبيًّا في المرحلة الثانوية– وحينما سأله، فتحَ الصبي هاتفه ثمّ «اليوتيوب» وبحثَ عن الإعلان، إنّه صاحب مصانع الحدّاد للحديد والصّلب، تبادل حسين وشمس النظرات، ها قدْ وصلا لمرادهما، شكرَا الحاج فتحي ووعدَاه بتكرار الزيارة، عادَا للفتاتين يخبرانهما بما توصّلا إليه، فأخرجت زهرة حاسوبها وبحثتْ عن اسم هذا الحفيد، وجدتْ صورَه تملأ مواقع الإنترنت والجرائد والمجلات، لاحَظتِ الفتاتان أنّه يرتدي في كلّ الصور سلسلةً من الفضة، نصفها مخفي أسفل قميصه، وفي إحدى الصّور ظهر جزءٌ من الحجر، فجاءت تلك الصور

لتؤكّد لهم الظنون التي راودتهم، انتهوا إلى ضرورةِ مقابلته، تُرك الأمرُ لشمس، فاستطاع الوصول لغايته بتحديدِ موعدٍ، ظاهره لقاءٌ صحفيٌّ مع رجل أعمالٍ لامعٍ مثله، أنهى شمس مكالمةً كان يُجريها ثمّ نظرَ لهم قائلًا:

- موعدُنا معه الخميس بعد القادم.

قال حسين بضيقٍ:

- لكنّ هذا الموعد بعيد جدًّا يا شمس.

رفعَ شمس كتفيه، بسطَ راحتيه ومطّ شفتيه ثمّ قال:

- لم أستطع الحصول على موعدٍ أقرب من هذا يا حسين، لنعتبرها فرصة للاطمئنانِ علىَ أعمالنا ومصالحنا التي تركناها؛ لنبدأ هذه الرحلة.

فقالت زهرة مُستاءة:

- وماذا عنّي؟! لقد خلّفتُ كل شيءٍ ورائي.

فقال شمس:

- أسبوعٌ واحد يا زهرة، ليكنِ استراحة بعدَ ما عشناه الأيام الماضية من سفرٍ وبحث.

قالتْ حسناء بحماسٍ:

- ستقضينَ هذه الفترة في بيتنا بصحبتي، وسأنظّم لكِ برنامجًا سياحيًّا رائعًا في الإسكندرية.

أسرعَ شمس قائلًا:

- لا، لقد استأجرت الشقة المجاورة لشقتي لأجلها.

رفعتْ حاجبيها، ونظرت له بلوم قائلةً:

– وهلْ أنا آخر مَن يعلم بهذا الأمر؟! لن أسكنَ في هذه الشقة، سأعود للفندق.

تحدّث بصيغة غيرِ قابلة للنقاش:

– عن أيّ فندق تتحدّثين؟ لن تسكني في الفندق بينما نحن موجودون، وكيف سنطمئنّ عليكِ وأنتِ وحدك؟!

عقدتْ ذراعيها أمام صدرها مُجيبةً بحدّة:

– عشتُ لسنواتٍ وحدي، ولا أنتظرُ حماية أحد.

أرادَ حسين أن يخفّف من حدّة الحوار بينهما فقال:

– نعرفُ أنكِ تستطيعين حماية نفسك يا زهرة، لكن شمس معه حقّ، لا وقت للعناد، أنتِ هنا لا تعرفين أحدًا في مصر، سيكونُ من الأفضل أن تمكثي إمّا في بيتنا أو في تلك الشقة التي استأجرها شمس.

صمتتْ تُفكر وشمس يدْعو أن تُصبح جارته، لا يعلم ما الذي حدث له؟ ولا كيف أصبح قلبُه هشًّا لهذا الحدّ في حضرتها! أصبح لا يقدرُ على فراقها ولا يتخيّل يومه دون أن يُكحِّل عينيْه برؤيتها، ويتعطّر بأنفاسها، ورائحة مربى الكرْز التي أدمنها، انتظر ردّها بشوقٍ فخيّبت آماله قائلةً:

– حسنًا يا حسناء سأمكثُ معكِ في الإسكندرية.

رسمَ ردّها خيبةَ الأمل على وجهه، حملوا حقائبهم، وفي محطة القطار تفرّق شملهم، ثلاثة مِن طريق، وواحد من طريقٍ بصحبة الوحدة وخيبة الأمل.

عادَ حسين للشركة يعمل ليلَ نهار قبل إجازته، وحسناء وزهرة تقضيان الوقت في التنزه وزيارة معالم الإسكندرية، كما عادَ شمس للجريدة ولحلّ القضايا المجهولة، وبعد ثلاثة أيام كان يقعدُ خلفَ مكتبه في شقته، لقد خطرَ بباله أن تكون روايته القادمة عنَ الحجر، يكتبُ أولى حروفِ المسوّدة عندما رنّ جرس الباب، زفر بحنق؛ بعدما قطع هذا الزائر المزعج حبلَ أفكاره، اتّجه نحوَ الباب بغضبٍ دونَ أن يسأل عن الطارق وفتحه بنفس الغضب فاتّسعت عيناه، واستحالت نارُ غضبه بردًا وسلامًا على قلبه، خرج صوتها كموسيقى الناي التي يعشقُها قائلةً:

- يبدو أنّني أزعجتك!

ردّ سريعًا:

- بالطّبع لا، أنا فقط تفاجأت.

قالت:

- لقد مللتُ جوّ الإسكندرية، أو ربما لم أعتدِ المكوثَ والنوم بمشاركة أحد.

ضحكتْ برقّةٍ ثمّ تابعت:

- لا أعلم، ربّما اشتقت للوحدة!

الوحدة، التي كرهها طوالَ حياته، الآن يُريدُ شُكرها وتقبيلها! ظلّ يتأمّلها باسمًا في صمت بيدَ أنّ الضجيج يملأ قلبه ورأسَه! تورّدت وجنتاها، وحاولتِ التّظاهر بأنّها لم تسمع أيًّا من أفكاره التي قطعتْها قائلةً:

- هل سأظلّ واقفةً هكذا طوال الليل؟! أين مفتاح الشقة؟

انتبهَ لحديثها فاعتذرَ ودخل للبيت يُحضرُ المفتاح، انتظرتْه أمام الباب، عاد ثمّ حمل حقيبتها وفتحَ بابَ الشقة، ودّعته وأغلقتِ الباب، فظلّ واقفًا أمامه؛ يستنشقُ عبير الكرز ويتغزّلُ في جَمالها، فتحتِ الباب فجأةً تعقدُ ذراعيها أمام صدرها قائلةً:

– هل سأنامُ أم سأظلّ أسمع أفكارك طوالَ الليل يا شمس؟!

كسَا الخجلُ ملامحه، اعتذر ثمّ هربَ من أمامها، ظلّت تتابعه ضاحكةً وهو يختفي في لمح البصَر، دخل إلى شقّته وتنفّس الصعداء، كلّما أراد التفكير فيها تذكّر موهبتها فقرّر أن يشغلَ تفكيرَه بالمسوّدة، عاد لمكتبه، يبدو أنّ رؤيتها شحنت طاقةَ إلهامه فقد انسابتِ الحروف من بينِ أصابعه على لوحةِ المفاتيح وقضى الليل في الكتابة.

***

مرّت الأيام سريعًا، أراد شمس أن تتمهّل الثواني والدقائق؛ فلأوّل مرةٍ يشعر بالأُنس، لأول مرّة تترك الوحدةُ تلابيبه، وجودُها في الشقّة المجاورة له يفصل بينهما حائطٌ ينعشه ويُحييه، يقْضيان الليل سويًّا،كلّ منهما في شرفته، يحكيانِ عن حياتهما وكيف كانت قبل ارتداء القِلادة، يؤمنُ أنّ العين مرآة القلوب، ولهذا يرى حزنَ قلبها معكوسًا في عينيها، كشف لها عورةَ أحزانه علّها تفعل، لكنّ حروفَها عنيدة تأبى البوح، تُلصِّمُ جرحَ قلبها؛ تخشى أن ينبشَ البوح بجرحها، ويطلق سراح الوحشة والفقد اللّذيْن أتقنت أسْرهما! تشعر بتعلُّقه بها، تسمعُ أفكاره فتصمّ أذنيها، ترى نظراتِ «الحب» تشعّ من مقلتيه، فتضعُ بتجاهُلها تحت الحاءِ نقطة، وتُلقيه فيه وحيدًا ينتظر أنْ تدلو بدلْوها وتنقذه! لم تعدْ تثقُ في الحَب؛ بعدما تركَ يعقوبُ في قلبها جرحًا

غائرًا، يمنعها من أن تهنأ بحياتها من جديد، لو قابلت «شمس» قبْل يعقوب لاختارته، تراه رجلًا حقيقيًّا، تجدُ فيه ما كان ينقص يعقوب وتغافلت عنه بسببِ عمى الحب، ومع كلّ هذا تخشى الاقتراب! كلّما حاول أن يقترب منها خطوةَ ابتعدتْ أميالًا، تُتقنُ دورَ المستمع فقط، وعندما يحين دورُ حديثها تهرب، هذا ما تفعله كلّ ليلة، ثمّ لم تعدْ تخرج إلى شرفتها، تسمعُه يناديها بلا صوتٍ فتصمّ أذنيها، إلى أن اتصل بها ذاتَ ليلة، تردّدت في البداية ولكنْ خشيت أن يقلقَ عليها ويأتي إلى الشقة ليتفقدها، فردّت، سألَ بصوتٍ تملؤه اللهفة:

- هل أنتِ بخيرٍ يا زهرة؟

أجابتْ بجفاء:

- أجل يا شمس بخير.

فسأل بقلقٍ:

- لم تخرجي إلى الشّرفة منذ يومين!

مازالت تتمسّك بجفائها وهي تقول:

- عذرًا، كنتُ منشغلة بالقراءة، أتريدُ شيئًا؟

تجلّى تيهُ روحه في سكوته، وحينما نادتْه انتبَه وقال:

- اخْرجي للشرفة، أريد أن أخبركِ شيئًا.

خرجت، فتهلّلت أساريره كعائدٍ من غربةٍ طويلةٍ إلى أحضان وطنه، حينما رآها تيقن أنّ ملامحَه وكلّ شيءٍ حوله كان باهتًا،كفيلم ستّيني، لا ألوان فيه سوى الأبيض والأسود، وها هو برؤيتها يتلوّن كلّ شيءٍ في عينيه!لم

تعدْ تتحمّل سماع حديثه لنفسه عنها، أصبح يؤذي ضميرَها، فسألت بوجهٍ مُتجهّم:

– أكنتَ تريد أن تقول شيئًا؟

بدَا مُتلعثمًا وهو يقول «أ.. أجل»، سكتَ يُلملم شتاتَ حروفه، ثمّ قال بابتسامة مُشرقة:

–لقدْ أخبرني حسين أنّهما تحرّكَا من الإسكندرية، والليلة سيكونان هنا.

ردّت بصوتٍ فاتر:

– أعلمُ ذلك، لقد أخبرتني حسناء منذ قليل.

ظلّا صامتيْن، كلٌّ منهما لا يدري ماذا يقول، سألت «أتريدُ شيئًا آخر؟»

تابعت أُفُولَ ابتسامته، مازال صامتًا يُحاول كبحَ جماح قلبه ولسانه، يُجيبها وكلماته يتردّد صداها داخله وحدَه! يريد أن يصرخَ نعم أريدُ يا زهرة، أريد رؤيتك، أريد سماع صوتك، أريدُ استنشاق عبيرَ الكرز الذي ينبعث من شعرك، يومان غابتْ فيهما شمسي وانطفأ فيهما قمري، ثمانيةٌ وأربعون ساعة، كلّ ساعة تحمل ستين دقيقة، كلّ دقيقة تحمل دهرًا وأنا أُراقبُ الهاتفَ والشرفة! أمدّ أذنيّ للحائط علّني أسمع صوتك، ثمانية وأربعون ساعةً أصابتني بالجنون! لم تتحمْل أنْ تستمع لأكثرَ من ذلك، اعتذرت بحجةٍ واهية وهربت إلى شقّتها سريعًا تلتقطُ أنفاسها، انسابتْ دموعها حزنًا على حاله وجفائها غير المقصود، تتمنّى أن ينتهي أمرُ إعادة الحجَر لتهرب بالمتبقّي من قلبها وتعود لحياتها وتحقيق أحلامها، لا تُريد الآن سوى ذلك فقط.

***

وصلتِ السيارة أمامَ صرح الحداد، هبط ثلاثتُهم يرتدون حُللًا رسمية، مازالت زهرة ترتدي القلادة، أمّا شمس وحسين فقدْ تركاها في منزل شمس مع حسناء؛ خشية أن يُفتضح أمرهم حينما تكتملُ الأجزاء الأربعة، دخلوا مقرّ الشّركة، انتظروا عشر دقائق في غرفةٍ ثمّ بعدها أدخلَهم مديرُ أعماله لمكتبه، استقبلهم بابتسامةٍ حذرة، دخلت زهرة إلى الغرفة، لاحظوا اصفرارَ وجهه واضطرابَ أنفاسه فتأكّدوا من وجودِ القلادة، تألّم شمس لحال زهرة، تابعَا اضطرابهما في صمتٍ، ثوانٍ وعادَا كما كانا، عاد الرجلُ لابتسامته التي سرعان ما تلاشتْ، وقطّب جبينه بعدما صافحَ «شمس» و«حسين»، ومن بعدهم زهرة، أذِنَ لهم بالجلوس وهو يتفحّصهم بنظراتٍ ثاقبة، سلّموا دفّة الحديث لشمس، ظلّ يسألُ أسئلةً محفوظة يُكرّرها الصحفيون، عن حياتِه وكيف بدأ بناءَ هذا الصرح؟ إلى أن يجدوا بدايةً لما أتوا من أجله، بدا الرجلُ منتبهًا لما يقولُ شمس، ثمّ قاطعه ناظرًا لزهرة وعلى ثغره ابتسامة ماكرة قائلًا:

- لا تُحاولي قراءةَ ما يدور في رأسي الآن؛ لأنّكِ لن تجدي شيئًا عمّا أتيتم من أجله.

تبادلوا النظراتِ المرتبكة، حلّ الصمت ثوانٍ، والرجل يتبادل النظرات مع زهرة، ثمة حوارٌ صامتٌ يدور بينهما! عاد يُوجّه حديثه لزهرة:

- أجل آنسة زهرة ما قرأتيه في رأسي صحيحٌ، لم يشعر أحدٌ بالصّداع والألم كما شعر كلانا؛ لأنّكِ الوحيدة التي ترتدينَ الحجرَ الآن، أمّا هُما فقد تركاه في البيت.

نظرَ إلى شمس وقال:

- أتعبتَ نفسك كثيرًا في اختلاق كذبة، علمت حقيقتها مذْ صافحتك، كما أنني بمصافحتكم عرفتُ كلّ شيءٍ عن حياتكم، وما سيحدث لكم بعد

دقائق، فمثلًا بعدما أتركُكم هنا سيرنّ هاتف حسين وتسأله توأمه «ماذا قال حينما تحدّثتم عن الحجر؟» وها أنا أخبرُكم بإجابة هذا السؤال؛ كي لن نُطيل الحديث أكثر من ذلك.

زفرَ بهدوءٍ ثمّ تابع:

- أجل أنا فؤاد، حفيدُ عرفة الحداد، وأُخفي القلادة مثلكم، وها أنا أخبركم بأن طلبكم مرفوض، أنا سعيدٌ بحياتي هكذا، لن أتعاونَ معكم ولا أريدُ إعادة الحجر أو فقدانه، إن أردتُم الاحتفاظ بأحجاركم فهذا يعودُ إليكم، وإن أردتم بيعَها فأنا مستعدّ للدفع، كنت أودّ قضاءَ وقتٍ أكثرَ معكم، ولكنْ لديّ اجتماعٌ سيبدأ بعد دقيقة.

قال جُملته وخرجَ من مكتبه تاركًا الثلاثة مذهولين، حيارى، صامتين، رنّ هاتف حسين فبُهِتَ حينما رأى الاسْم، فتح مُكبّر الصوتِ فسمع ثلاثتهم حسناء تسأل «هاَ.. أخبرني يا حسين، ماذا قال حينما تحدّثتم عن الحجر؟».

*** 

مَن لا يجد في نفسِه الشّجاعةَ الكافية
للمُخاطرة لن يُحقق شيئًا في حياته، ولا سيّما
في الحبّ..

(٩)

# في الطّريق

نسماتُ هواءٍ باردة تلفحُ وجهه، مازال أسيرَ النوم بيدَ أنّ عقله يتساءل مَن فتح المكيف؟ فتحَ عينيه بهدوءٍ ليجد السّماء أمامه، أين سقف الغرفة؟! بل أين الغرفة؟! أين أنا؟! كلها أسئلةٌ سألها فزعًا، حينما وجدَ نفسه مُستلقيًا في الهواء ولا يعلم كيف! الهواء يجذبه بقوةٍ لأسفل، لا يرى شيئًا سوى صفحةِ السّماء تزداد اتساعًا وقمة جبلٍ يصغر حجمها كلّما ازدادتْ قوّة سقوطه، يسمع صفيرًا قويًّا في أذنيه، رفرفَ بيديه؛ مُحاولًا الإمساك بقشةٍ يتعلّق بها، فجأةً تعلّق جسدُه في الهواء، وبدأ الضوءُ يخبو شيئًا فشيئًا، خفق قلبه بعنفٍ، يخشى أنْ ينتهي هذا الضوء للسّواد، ثوانٍ وبدأ الظلامُ ينتشر، آخر ما سمعه صرخة امرأة تنادي باسمه، ولا يعلم مَن هي.. ولا مِن أين أتت؟! ثمّ بعدها اسودّت الدنيا في عينيه.

***

جالسان في صالة البيتِ أمام التلفاز، أحدهما يُقلّبُ القنواتِ بلا هدفٍ، والآخر واجمًا شاردًا، لاحظَ الأولُ شرودَ الثاني، فأغلق التلفاز وقال:

– ماذا بك يا شمس؟

لم ينتبهْ فناداه وكرّر السؤال فأجاب:

– لا شيء، أنا بخير، ربّما بالي مشغولٌ بما سيحدُث في المستقبل، بعد أن قرّر كلّ منّا الاحتفاظَ بحجَره.

رمقَه بدهاءٍ ثمّ قال:

- أمشغولٌ بالمستقبل نفسِه أم بكوْنه خاليًا «منها»؟!

فاجأه السؤالُ فارتبك وراوغَ قائلًا:

- بالطّبع لا، زهرة حرّة واختارت أن تسافرَ وتتركنا، رغم أنّني قدّمت لها حلولًا؛ لتستقرّ هنا، وتحقّق أحلامها كما يحلو لها، لكنّها عنيدة.

ضحكَ حسين وقال بمكرٍ:

- أنا لم أذكرْ اسم زهرة، أنت مَن اختار وضعَ الاسم بدلًا من هاء «منها».

عادَ للمراوغة قائلًا:

- أتشربُ معي قهوة؟

لم ينتظرِ الرّد، فرّ إلى المطبخ فتبعه حسين، ظلّ يُراقب ارتباكه صامتًا ثمّ قال:

- مَن لا يجد في نفسه الشجاعةَ الكافية للمخاطرة لن يُحقق شيئًا في حياته، ولا سيّما في الحبّ يا صديقي، لن تتمكّن من كتم هواك طويلًا؛ فإنّ الرجل منّا إذا أحب باح، عليك أنْ تكون شجاعًا في حبّك، المرأة تعشق أن ترى تمسُّك الرجل بها.

نظرَ لساعته ثمّ تابع:

- موعدُ الطائرة بعد ثمانِ ساعات، مازال لديك الوقت الكافي لتعترف، لا تنتظر معجزةً تُثنيها عن قرار السفر، فربما يكون بوحُك هو المعجزة التي تنتظرها!

فارتِ القهوة مُعلنةً عن مورِ قلبِه، أخرجه حسين من المطبخ قائلًا:

-اذهبْ وفكّر فيما قلت في الصالة، وأنا سأعدّ القهوة وألحق بك.

أعدَ القهوة وخرج ليجدَه ما زال شاردًا فقال:

- الوقت يمرّ يا شمس!

زفرَ بنفاد صبرٍ ثمّ قال:

- لا تُحدّثني عن الشجاعة في الحبّ بينما لم تجرّبْه يا حسين! لن تشعر بما يحدث الآن داخلي.

ابتسمَ بمرارةٍ ثمّ ارتشفَ من كوبه، التقط هاتفه وأشهرَه أمامه، نظر شمس للصورة التي يضعُها حسين خلفيّة لهاتفه، وسأل مندهشًا «هل أنت متزوج؟!»

أجابَ وعلى شفتيه شبحُ ابتسامةٍ باهتة «كنت حبيبًا وزوجًا وأبًا»

فسألَ شمس مُقطّبًا جبينه «والآن؟!»

أسرَ الحزنُ ملامحه وهو يُجيب «لم أعدْ أيًّا منهم»

سألَ شمس بحيرةٍ «أين هم؟»

فأجابَ بصوتٍ نابع من قلب منكسر وروح محترقة «هي متزوجة وسعيدة في حياتها، وابني صارَ عصفورًا في الجنة»، سكنتْ حروفه بفعل هيبة ذكر الموت، ثمّ تابع «بموته لم نستطع الاستمرارَ في الزيجة»، قال شمس بحرفٍ حزينٍ «آسف، أنا حقًّا آسف يا حسين».

ردّ بوجهٍ مُتجهّم «لا عليك»، وقف الطيرُ على رأسيهما برهةً، ثمّ هيّجت الأحزان رغبة الاسترسال في نفْس حسين، فوجد حروفَه تخرج بلا استئذانٍ:

- تركتها لغيري لأنّني لم أكن شجاعًا ولم أكنْ رجلًا، أحبتني وعشقتها لكنني لم أتمسك بها، خذلتها فقرّرت أن تُلملم الباقي من كرامتها وترحل، طلبتِ الطلاق، ولأنني كنت عنيدًا طلّقتها بسهولةٍ رغمَ عشقي لها؛ فقط لتفهمَ أنّ وجودها مثل عدمه، تعذَّبَت في حياتها بسببي وحينما وجدتْ رجلًا يصونها كنتُ مُصرًّا على كِبري، وصل تجبُّري لأن اتّهمتُها أنها السببُ في موت فلذة كبدِها، قلت لها بجرأة لن أُعيدكِ لي، ولن أتركك تتزوّجين، ستظلّين هكذا كالبيت الخرب، وبالفعل رفضت الزيجة، نغّصت عليها حياتها، ثمّ عدتُ لوعيي حينما حاولتُ الانتحار، لقد أوصلتُها للانتحار يا شمس وأنا أتنفسها! لا أستطيع نسيانَ نظرة عينيها وهي تقول «لو كنتُ أعلم حينما أحببتك أنّك ستجعلني ألعنُ هذا اليوم؛ لما فعلت!» حاولت إعادتها لي كثيرًا لكنّها رفضت قائلةً «لو كنت الرجل الأخيرَ في الكون لن أكونَ زوجتك» ظلّت تُقاسي وحدَها حتى وجدت رجلًا يليقُ بحبها، فلم أتدخّل هذه المرة، من حقّها أن تجدَ مَن يُعوضها عمّا فعلت بها، من حقها أن تعيش حياتها كباقي النّساء، لهذا لم أحرّك ساكنًا وفضّلت أن أقاسي عذاب الفقد وحدي، والآن أعضّ بنان النّدم على جُبني وخِسّتي.

- ولِمَ لم تُكرّر التجربة مع أخرى؟ بالتأكيد كنتَ ستنسى ألم فراقها.

سألَ شمس فأجاب حسين:

- ومَن قال إنّني لم أُجرّب؟ حاولت ووجدتني أظلمُ امرأة أخرى، فحرّرتها من أسري قبل فواتِ الأوان.

صمتَ وشردَ في الفراغ لحظة، ثمّ تابع بصوتٍ مُتحشرج:

- أتعلمُ يا شمس! ليست كلّ النساء يُمكن استبدالهنّ بأخرى، هناك امرأة واحدة إذا دخلتْ حياتك وفرّطت فيها ستظلّ طوال الباقي من عمرك تعضّ

بنانَ الندم على التفريط فيها، سيُلوّن الشيبُ رأسك برماديّته، وأنتَ تبحث عنها في شبيهاتها الأربعين ولن تجدها، ستتعدّد علاقاتك وتوهمُ نفسك أنّك أحببتَ لكنّ نفسَك ستُكذِّبك؛ ستواجهك بحقيقة أنّك تبحثُ عنها فيهن، وأيضًا لن تجدها! سيمرّ بك قطار العمر وأنت تُوهم نفسك بالرّضا عن الشريكة، التي أصبحتْ لك في النهاية، لكنّك يا صديقي ستظل كلوحة «بازل» تنقصُها أهمّ وأكبر قطعة لتكتملَ صورتها، ستظلّ طوال حياتك مثلي ناقصًا بدون القطعة التي تُكمِل قلبك، مهْما حاولت أن تبدو طبيعيًّا.. مهما حاولت!

رانَ الصمتُ عليهما، حسين في عالم آخر معَ شجونه، وشمس يُقلِّب حديثه في رأسه، رنَّ جرسُ الباب، لقدْ أعدّت الفتاتان العشاء، ساعدهما حسين في إعداد المائدة بينما هرب شمس إلى غرفته، يخشى أن ينضمّ إليهم فيتعرّى ما يجولُ بخلده أمامها، ويُفتضح سرُّ قلبه، ولا يدري أنّها سمعت كلّ صراع دار بينه وبين نفسه، أعدَّ ثلاثتهم المائدة، ثمّ ناداه حسين فخرجَ مُرتبكًا يُحاولُ صرفَ تفكيره عنها، تجنّب النظرَ إليها أو الحديث معها، تناولوا العشاءَ ثمّ جلسوا يتسامرون، كلٌ منهم يحكي عمّا سيفعله بحياتِه في وجود الحجر، كان شمس يسمعُهم في صمتٍ ويشاركُ بإجاباتٍ مُقتضبة، أرهق ذهنه في محاولات صرفه عن التّفكير فيها، يتمنّى أن تحدثَ معجزة تمنعُها من الرحيل، سمعوا جرس الباب فتوجّهت نظراتُهم صوبَ شمس، وسأله حسين «أتنتظر أحدًا؟»، نفى بإيماءة من رأسه وهو ينهضُ لفتح الباب، وحينما اقتربَ منه باغته صداعٌ مفاجئ، توقّف لحظةً ثمّ تابع سيره، وما إن فتحَ الباب كأنّما فتح بوابة جحيم على الأربعة الذين يملكون الحجَر، انتفض جسدُ حسين وزهرة بقوةٍ أفزعتَّ حسناء، كما انتفضَ شمس والزائر المفاجئ، الذي تسبّب في كلّ

هذا، اضطربتْ مصابيحُ البيت، وزادت انتفاضةُ أجسادهم، اعتادت حسناء على تلك النوبة، لكنْ هذه المرّة أعنفهم وأغربهم! لاحظت أنّ كلّ قلادة يخرج منها شعاع أزرق، واجتمعتِ الأربعُ أشعّة في نقطة التقاءٍ في سقفِ البيت، ظلّت تتأمّلهم مكتوفة الأيدي في خوفٍ إلى أنْ بدأتِ المصابيحُ في الاستقرار، فعلمت أنّ استقرار حالتهم وشيك، تركتهم على حالهم وذهبتْ إلى المطبخ، تُعدّ كئوس الليمون لتستقبلهم بها بعد عودتهم إلى طبيعتهم.

***

قعدوا بوجوهٍ شاحبة، حاملينَ في أياديهم كئوس الليمون التي أعدّتها حسناء، الصمتُ سيّدهم، فحاربه شمس قائلًا:

– أهلًا بك يا فؤاد، بالطّبع كُنّا سنُرحِّبُ بك لوْلا الحجر.

قال وهو يُحاول التقاطَ أنفاسه المُتلاحقة:

– أعلمُ ذلك، شكرًا لك، استطعت الوصولَ للعنوان وأتيتُ لأخبركم بأنني مستعدّ للتّعاون معكم وإعادة الحجر.

اتّسعت أعينهم بعدَ جُملته وتبادلوا النظراتِ ثمّ سأله شمس:

– ممتاز، ولكنْ أيمكنني أن أعرفَ السّبب وراء تغيُّر رأيك؟

ظلّ يُراوغ بإجاباتٍ بعيدة عن الحقيقة، ونسيَ أنّ بينهم امرأة تسمع الكلام الذي لا يُقال! باغتتْه زهرة وهي تتفرّسه بمكرٍ، وتردّ له الصاع:

– أتعبتَ نفسَك كثيرًا في اختلاق كذبة، علمتُ حقيقتها مذْ سمعت ما يجول في رأسك، أخبرْنا يا فؤاد ماذا رأيت في نومك؟

اضطربتْ ملامحه،لم يجد بُدًّا من قولِ الحقيقة، صمتَ هنيهة ثمّ قال:

– لديّ موهبة الاستبصار، والأحلام جزءٌ منها، لقد رأيتُ في منامي الكثيرين من حولي قبلَ موتهم، رأيت بأعينهم الظلام، وهذه المرّة رأيت الظلام لسبعة أيام بعين رجلٍ واحد، إنّه أنا! كابوسان يتكرّران، أحدهما أراه منذُ أنِ ارتديت الحجر، نهايةً العالم واحتراقي، والثّاني أراه منذ أسبوع، أسقط من قمّة جبلٍ ثمّ أرى الظلام، أنا لا أريدُ الموت، علينا أن نوقفَ لعنة هذا الحجر.

يسمعونَه صامتين مُحاولين استيعابَ كلماته، فقالت حسناء:

– لا علاقةَ للحجَر بالأمر، أظُنّه يُريك ما سيحدث لا يُغيّره!

رمقَها بانزعاجٍ فشعرتْ بحمقِ ما قالتْ للتو، آثرت الصمتَ فرفع حسين الحرج عنها قائلاً:

– أصبح الآن أربعتُنا موافقين على قرارِ إعادة الحجر، ستلغينَ رحلتك يا زهرة، أم لكِ رأي آخر؟

لوتْ شفتيها ثمّ قالت:

– بالطّبع لن أسافر.

كان الهدوءُ باديًا على شمس، بينما قلبه يرقصُ طربًا على أنغام جملتها، وفي داخله تتردّد جُملة «شكرًا يا الله على معجزةٍ في زمنٍ انتهت فيه المعجزات».

***

في السّادسة صباحًا، سيارةُ دفع رباعيّ سوداء تمخُرُ الطريق إلى صعيدِ مصر، تحمل في داخلها خمسة، ينامُ القوي في الأريكة الخلفية، وفي المنتصفِ

تنام قارئة الأفكار بجوار الحسْناء، كلّ منهما تسندُ رأسها على النّافذة المجاورة لها وتغطّ في نوم عميق، أمّا خلف المقْود يجلس المستبصرُ، وجانبه كليم الموتى، كِلاهما ظلّاً مُتيقّظين طوال الليل، يتحدث شمس عن العملِ وعنِ الحجر، قصّ كلّ ما فات فؤاد في الحكاية، وما توصّلوا إليه قبل يوم لقائهم به؛ مُحاولًا جعلَه مُتيقّظًا للقيادة، بعدَ رفضه أن يقودَ غيرُه سيارته، يحكي لفؤاد وعيناه بين الفيْنة والأخرى تتابعُ محبوبته في المرآة، طوالَ الرحلة نائمة وتضع السماعات في أذنها، فأطلق العنانَ لنفسه تتحدّث عنها، وتتغزّل فيها كيفما شاءت، والحقيقة أنّها تضع السّماعاتِ ولا تسمع فيها شيئًا! ربّما أرادت أن ترفع عنه الحرجَ فتصنّعت النوم، تستمع لحديثِ نفسه عنها وتُخفي ابتسامتها في الوشاح الذي ترتديه، لا تعلم كيف ومتى بدأت تغمرُها السعادة كلّما استمعت لكلَماته التي أسرّها في نفسه ولم يبْدها لها؟! لم يفرح شمس وحدَه بلحظة انضمام فؤاد إليهم وقرارها بعدم السفر، ففي قرارة نفسها كانت تُمنّيها بمعجزةٍ مَثله تمامًا، يُبرر عقلها أنّ السَببَ وراء شعورها هؤلاء الثلاثة، أصبحوا بين ليلةٍ وضُحاها العائلةَ والأصدقاء الذين حُرمت منهم طوال حياتها، وبمرور الوقت اكتشفت أنّ لقلبها سببًا آخر! شعرتْ بتوقّف السيارة، ثمّ صوت شمس يوقظهم.

لقد توقّف فؤاد عندَ إحدى استراحاتِ المسافرين ليتناولوا فطورهم، وينالوا قسطًا من الرّاحةِ قبلَ استكمال الرحلة، هبطَ الخمسة إلى المطعم، يبدو ألّا أحد قرّر السفر للصعيد اليومَ سواهم، فكما كانَ الطريق خاليًا من السّيارات حالُه كحال المطعم، التفّوا حول إحدى الطّاولات، أتاهم النادلُ بقائمةِ الطعام، اختاروا منها ثمّ نهضت الفتاتان إلى المرْحاض لتنفضَا بالماء عنْ أعينهما أثرَ النوم، ثمّ انضمّتا للرجال، تفاجئتا بوجود سبعة رهطٍ في

المكان، كانتا في طريقهما نحوَ الطاولة حينما توقّفت زهرة فجأةً تنظر حولها بريبة، لاحظَ شمس الخوفَ الذي بدَا على وجهها فنهضَ نحوها يسأُل بقلق هامسًا «هل أنتِ بخير؟» أومأتْ ثمّ اتّجهت نحو الطاولة معه، جلستْ شاردةً الذهن، ثمّ قالت فجأة بخوفٍ:

– علينا أن نرحلَ من هنا بسرعة.

نظروا إليها يتساءلون عن السببِ دون أن تنطقَ ألسنتهم، فتابعت برعبٍ وهي تقبض على يدِ حسناء:

– أرجوكم، علينا أن نرحلَ الآن وبسرعة، سأخبركم بكلّ شيءٍ في الطـــ

تبعثرتْ منها الكلماتُ، فالحروف، ثمّ توقّفت لمّا انتبهت للنادلِ واقفًا أمامهم يضع أطباقَ الطعام، لم يكن نفسَ النّادل السابق، حدّقت فيه بهلع ففهمَ فؤاد من نظرتها أنّها تسمع شيئًا مُريبًا يدورُ في رأسه، تعمّد لمسَ يده، ثانيتان كانتا كافيتيْن ليفهم مما رأى أنّهم في خطر، لا وقتَ ليشرح لهم، دسّ يدَه أسفل سترته وتحسّس مسدسه- الذي لا يفارقه-، نظر إلى زهرة وقال دونَ أن ينطق «زهرة ، لا وقتَ لدينا، نفّذي بسرعة، اطلبي مفتاح السيارة؛ تعلّلي بأنّك ستُحضرين شيئًا منها، خذي معكِ حسناء واخرجَا من هنا ثمّ أغلقي السّيارة عليكما جيدًا، وأخبري «شمس» و»حسين» في رسالةٍ أنّنا في خطر» حاولت السّيطرة على هلعها وهي تُنفِّذُ الأمر، تابعَها فؤاد إلى أنْ أغلقت السيارة، ثمّ سمع صوت وصولِ الرسالة على هاتفي شمس وحسين، اللّذين اضطربت ملامحهما، لكزهما فؤاد في قدَميهما، وقبضَ على مسدسه في نفس اللحظة التي رأى الرجال يتأهّبون للهجوم فيها، أحدُهم رفعَ مسدسه نحوهم، فقبض فؤاد على يدِ النّادل وسحبه أمامه، فاخترقت الطلقة جسدَه

بدلًا منه، ثمّ سحبَ مسدسه وأطلقَ على الرجل وهو يصرخ في حسين وشمس «انبطحَا»، ففعلَا.. قلَبَ حسين الطاولة واحتميَا خلفَها، كان فؤاد يتبادل إطلاقَ النار معَهم، مُستخدمًا جسدَ النادل درعًا لحمايته، بينما زحف حسين إلى الطاولة الكبرى المجاورة، حملها وقذفَها نحوهم فاختلّ توازنهم، أصبحَ فؤاد يحاربهم بالطلقات، وحسين بالطّاولات والكراسي، وكلّ ثقيل يقع تحتَ يده، إلى أنْ سقط السبعة بين قتيلٍ ومُصاب، حينها أسرعَ الثلاثةُ نحو السيارة، لكنّ «شمس» توقّف في منتصفٍ الطريق وعاد إليهم، اقتربَ من أحد المقتولين ولمسَه، اهتزّ جسدُ شمس بعنفٍ ومازال يُقاوم، شحب وجهه ورغمَ ذلك اقتربَ من جثّة أخرى ولمسها، استطاع أحدُ المصابين رفعَ مسدسه نحوه، لم ينتبهْ شمس فاخترقت الرصاصةُ كتفه، في نفس اللحظة التي دخل فيها فؤادُ وأطلق النار على الرجل، ثمّ أسندَ «شمس» إلى السيارة، فزعوا حينما رأوا «شمس» وصرخت زهرة باسمه بهلع، أفسحوا الطريقَ فأجلسه فؤاد، وعلى الفور خلعتْ زهرة وشاحها وكتمت به موضع الرّصاصة، انطلقَ فؤاد بالسيارة بأقصى سرعةٍ، سألت حسناءُ بخوفٍ:

- مَن هؤلاء؟ وماذا يُريدون؟

أجابَ شمس بأنفاسٍ متلاحقة:

- يبدو أنّ لعنةَ الحجَر الأزرق قد بدأت للتو.

❋❋❋

«انظرْ إلى النّسر مكسورِ الجناح ستظنّ أنّه
أضعفُهم، لكنّك لو دقّقت النّظرَ في عينيه
سترى القوّة، بعدَ خمسٍ ستُطلعك عيناه على
سرٍّ من أسرار الكون، ستأخذُك إلى عالمٍ آخرَ
ستكتشفُ فيه أنّك في مكانِك الصحيحِ»

# (١٠)
# اللُّغز

أمامَ مستوصفٍ صغيرٍ في أول قريةٍ قابلتهم، طلبَ فؤاد من الفتاتين الانتظار في السيارة، ثمّ حمَلَ حسين «شمس» ودخلَا به إلى المستوصف، لم يجدَا سوى ممرض وطبيب رفض استقبالهم لفقرِ الأدوات وعدم وجود غرفة عملياتٍ مُجهّزةٍ لاستخراجِ الرصاصة، وبعد الكثيرِ من المفاوَضات وافقَ الطبيب، فبعدَ فحص الإصابة تبيّن ألّا وقت لديهم للتحرّك نحو المستشفى، ربّما يودي ذلك بحياة شمس.

أحرقَ الانتظار قلبَ زهرة، فهبطت من السيارة وتبعتها حسناء، انتظرتا جانب شمس ومعهما حسين، والطبيب يقوم بالإسعافات الأولية لوقف النزيف، واصطحب فؤاد الممرّض ليشتريَا الأدواتِ التي كتبها الطبيبُ لهما، عادَا بسرعةٍ، وفور وصولهما جهّز الطبيبُ إحدى غرفِ المستوصف، انتظروا خارج هذه الغرفة ساعة، ثمّ خرج الطبيب يُخبرهم باستخراج الرّصاصة واستقرار حالة شمس، تركهم ودخلَ إلى مكتبه، سمعت زهرة ما يجولُ في رأسه فهمستْ لحسين وفؤاد «لقد اتّصل بالشرطة»، تبادل فؤاد وحسين النّظرات ثمّ نظرَا نحو غرفة شمس، سمعت زهرة الخطة التي تدور في رأسيهما فقالت «سأشغلُ الطبيب حتى تأخذوا «شمس» إلى السيارة»، وبالفعل دخلت إلى الطبيب بحجّة سؤاله عن حالة شمس، وأعطى فؤادُ للممرّض مالًا ليشتري إفطارًا للجميع، راقبا رحيله ثمّ دخلَا إلى الغرفة،

حمل حسين «شمس»، وراقب فؤاد وحسناء الطريق، استقرّوا في السيارة ثمّ أرسلوا رسالةً إلى زهرة فتبعتْهم، وما إن دلفتِ السيارة، انطلق فؤاد بسرعةٍ إلى وجهتهم.

***

ينام شمس على سرير جدّه، بدأ يستعيدُ وعيه، رآها جانبَه تتأمّله بعيونٍ قلقه، رؤية الفرحة تتلألأ في عينيها طبّبت جرحَه، وظهرت تلك الفرحة في حروفها وهي تقول:

- كدْنا نموت من الخوف عليك.

همسَ بوهنٍ:

- أنا بخير لا تقلقي، كم الساعة الآن؟

تفاجأ بإجابتها، وخرجتْ حروفه مُستنكرةً:

- ماذا! هل نمتُ خمسَ عشْرة ساعة؟!

أجابت زهرة ضاحكةً:

-أجل، كنت تستعيدُ وعيك لدقائقٍ ثمّ تعود للنوم.

باغتَه الألمُ وهو يُحاول الاعتدالَ من نومته، فساعدته زهرة، وحينما سألها عن الباقين أجابت:

-إنّهم ينتظرون في الصالة.

ثمّ تابعت باسمةً:

- لحظة سأحضرُ الحساءَ الذي أعددته لك.

«هل حقًّا أعدتْ زهرة الحساء من أجلي؟ أحقًّا كانت جالسة جانبي؟ لَمَ لم تخترق الرّصاصة كتفي منذُ زمن؟! عليَّ أن أشكرَ مَن فعل بي كلّ هذا» سَمعت ما يُحدِّثُ به نفسَه، فضحكت ولم تُعلق كعادتها.

***

على نفْس الطاولة التي اجتمعوا عليها في الشّهر المنصرم، اجتمعوا هذه المرة بوافدٍ جديد، مُضطربين بعد ما حدثَ منذ ساعاتٍ، أصرّ شمس على الانضمام إليهم بعد أن استعاد وعيه واستردّ بعضًا من عافيته، أخبرهم بما رأى حينَما لمسَ الجثتين، هناكَ مَن يعلم بأمر الحجر غيرهم ويُلاحقهم مِن أجل الحصول عليه، ولكنْ لم يستطع رؤية وجهه بوضوح، كان جالسًا في الظلام، أخبرهم شمس بما رأى ثمّ عادَ إلى سريرِ جدّه، بعدما شعر بألم في كتفه،كانوا يُفتشون الأوراقَ والصندوقَ الذي وجدوا فيه الصور مرّة أخرى، ثمّ تركوا هذه المهمّة لزهرة وفؤاد، ونهضَ حسين إلى الغرفة السرية يبحث عن شيءٍ يوصلهم لموطن الحجَر، أمّا حسناء فكانت تجلسُ أمام حاسوب فؤاد المحمول، تتحدث إلى صديقتها المتخصّصة في اللغات، أرسلت صورَ المخطوطات وتنتظر أن تخبرها بأيّ لغة كُتبت؟ وما المكتوب فيها؟ كانت تُساعد زهرة وفؤاد عندما سمعت إشعارَ رسالة صديقتها، فتركت ما بيدِها وأسرعتْ نحو الحاسوب، فتحتِ الرسالة ثمّ زفّت البشرى إليهما قائلةً «لقد علمت صديقتي بأيّ لغة كُتبتِ المخطوطات، وهي الآن تُترجم المكتوبَ فيها، رائع.. ها قد أرسلتْ أوّل صفحة».

بعدَ جُملتها نهض فؤاد ووقفَ خلفها، وقرّبت زهرة الكرسي منها، أرسلت إليهم الصفحة تلوَ الأخرى، فنهضت زهرة نحوَ الغرفة تُنادي «حسين»، وتركتْ فؤاد يقرأ الرسالة مع حسناء، كانَا مُندمجين في القراءة حينما وقعَ

القلم من يدِ حسناء فانحنت؛ لتلتقطه في نفس اللّحظة التي انحنى فيها فؤاد؛ لنفس السبب، فتلامستْ أيديهما، ارتجف جسدها خجلًا وسحبتْ يدَها فتفاجأت به يَقبض عليها، امتقعَ وجهها وتحوّل خجلها إلى غضب، جذبتْ يدَها بعنف وهي تُحدّجه بنظرات نارية، لا يعلم ما الذي دفعه إلى هذه الفعلة المُشينة! لم يكنْ يومًا مُهتمًّا بلمس يدِ امرأة أو معرفة شيءٍ عنها، وما إن لمسَ يدَ حسناء ارتجفَ قلبه، شعرَ بالأنس وهو يرى تفاصيلَ حياتها، ورغمًا عنه وجد نفسَه يقبض على يدها؛ كي لا يُحرَم من هذا الأنس، لمّا انتبه لنظرتها ترك يدَها مُعتذرًا، كانت على وشك توبيخِه لولا خروجُ زهرة وحسين من الغرفة، فاكتفتْ بنظراتها النارية، التي دفعته للابتعاد عنها مترًا حفاظًا على روحه. استعادتْ بعضًا من هدوئها وبدأتْ تشرح لهم الرسالة:

– يبدو أن توقُّع شمس كان خاطئًا، موطنُ الحجر الأصلي ليس بالجبل هنا.

عقدَ حسين حاجبيه استنكارًا، وسأل:

– أين إذًا؟!

فأجابتْ مُسترسلةً:

–المخطوطاتُ مكتوبة باللغة الإندونيسية، وبيرو تعني الأزرق، المخطوطات تحكي عن كهف يسمى «كهف بيرو» في السّاحل الغربي لسومطرة، تحديدًا في جُزر بانياك الإندونيسية، مكتوبٌ في المخطوطات أنّ السكانَ لا يصدّقون حكاية هذا الكهف ولا الحجر، ويعتبرونها من الأساطير، قليلون مَن استطاعوا الوصول للمكان، ولن يستطع أحدٌ الوصول إليه إلّا بالخريطة واللغز.

سألتْ زهرة:

– وأين هم؟

رفعتْ كتفيها ومطّت شفتيها، فسأل حسين:

– أهذا كلّ ما كُتب في المخطوطات؟!

أومأتْ ثمّ قالت:

– كلّها تحكي عن أسطورة الحجَر والقوى الخارقة، ومَن حصلوا على الحجر من قبل، وهذه الحكاية نعلمها جميعًا، لا توجد معلومةٌ جديدة سوى الخريطة واللغز، ولم تتطرق المخطوطاتُ لمكانها، كما أنّ هناك تحذيرًا من لعنة الحجَر وحُرّاسه، وأيضًا لم تتطرق إلى تفاصيلَ أو معلوماتٍ أدق.

شعرتْ زهرة بالإحباط فعادتْ لكرسيّها، تُطلق زفراتِ الغضب، حاولت حسناء التخفيفَ عنها قائلةً:

– حتمًا سنجد الخريطةَ هنا، غيرُ معقولٍ أن يذكر جدّ شمس الغرفة السريّة فقط من أجل صورٍ وذكرياتٍ لا دخلَ لها بعودة الحجر!

نظرتْ إلى حسين ثمّ أردفت:

– هيّا حسين، لنبحثَ مرّة أخرى.

فقال فؤاد «سأنضمّ إليكما»، أمّا زهرة فقد أثقلَ الإحباطُ كاهلها، التقطت صور جدّها وعادتْ تُفتّش فيها عن شيءٍ لا تعلمُ ماهيته، أو ربما أرادتْ أن تهزم شعور الإحباط الذي تسلّل إلى روحها برؤية جدّها، لاحظتْ في العديد من الصّور أنّ شمس الدين يحمل دفترًا، ألقتْ نظرة على الصندوق، زوتْ ما بين حاجبيها وهي تتفحّصه من الخارج والداخل ثمّ بسطتْها تدريجيًّا، واتّسعت عيناها بدهشةٍ وهي تُناديهم...

***

تفرّقوا كلٌّ منهم يبحثُ في ركنٍ وفؤاد يختلس النظراتِ لحسناء، كُلّما تلاقت عيونهما تُحدّجه بغضب، ثمَّ تعود للبحث، سمع صوتَ الساعة الرقمية في يده فتذكّر ما رأى حينما لمسَها، وبتلقائيةٍ تحرّكت كرتَا عينيه نحو مُجلّد كبير في الرفّ العلوي من المكتبة التي تبحثُ حسناء فيها، همس راكضًا نحْوها «اَلآن»، كاد المجلدُ يسقط فوق رأسها لولا أنْ وصل فؤاد في التوقيتِ المثالي، تلقّفته يداه فارتدّ جسدُها للخلف بخوفٍ، كادت توبخه أو تنادي توأمها ليوقفه عندَ حدّه لولا أنْ رأت المجلدَ الكبير في يده، وتخيّلت سقوطه بكل هذا الحجم على رأسها، نظرتْ إليه مذهولة وصدرُها يعلو ويهبط بتوترٍ من المسافة القريبة التي يقفُ فيها، ابتعدَ مُعتذرًا فأومأتْ وعادت للبحثِ تُحاول لملمةَ شتات نفسها، ألقى نظرة نحوَ حسين فوجدَه مُنغمسًا في البحث، اقتربَ منها وهمس بصوتٍ لا يسمعه سواها:

– آسف، لم أقصدْ ما حدث منذُ قليلٍ في الصّالة، أنا فقط رأيـ

لم يكملْ جُملته، سرق نداءُ زهرة العالي حروفه، انتبهوا جميعًا وخرجوا إليها، كما سمع شمس أيضًا نداءها وخرج إلى الصالة، قالت والأملُ يلوح مِن حروفها:

–هناك جزءٌ لم نفْحصه في هذا الصندوق، حرّكت الصندوق فسمعت صوت شيءٍ فيه.

اقتربوا منها، حملَ فؤاد الصندوق وحرّكه فتأكّد من ظنونها، طرق قاع الصندوق من الدّاخل، وضعَه أمامهم جميعًا وهو يقول:

– بالفعل هناك شيءٌ يتحرّك، علينا أنْ نفتح قاع الصندوق.

نظرَ أربعتهم إلى حسين، فابتسمَ بنشوةٍ ثمّ ضرب القاعَ بقبضته فتحطّم، صفّقت زهرة بحماسٍ حينما لاحَ أمامَ ناظريها الدّفتر، الذي رأتْه في الصور

بحوزةِ شمس، أخرجته بسرعة، دفترٌ مهْترئٌ قديم، غلافُه من الجلد، مربوطٌ بحبلٍ مَتين، سحبة خفيفة بيدِ حسين كانت كافيةً لتقطعه، فتحتْ زهرة الدفترَ فلمحَ شمس الحروفَ المنقوشة داخله، ابتسم حينما جالتْ بخاطره ذكرياته مع جدّه، وكمْ كان مُنبهرًا بخطّه! الصفحة الأولى كُتب فيها بخطّ بارز كبير «حَجَرُ بيرو» يبدو أنّ جدّه سبقَهم في ترجمة المخطوطات؛ فقدْ وجدوا كلّ ما توصّلت إليه صديقةُ حسناء مُدوّنًا في هذا الدفتر بخطّه، توقّفوا عند جزءٍ غير موجودٍ في المخطوطات، قرأته حسناء بصوتٍ عال:

«بعدما حصلنا على الحجَر ثمّ فقدنا كامل واهتزّ الكهفُ بنا، ركضنا بكلّ ما أوتينا من قوةٍ حتّى ابتلعتنا بغتةً دوّامةٌ اكتشفنا أنّها بوّابة مكانية، نقلتنا من كهف الجبل إلى جزيرةٍ غريبةٍ لأوّل مرةٍ نراها في حياتنا، ومن ليلٍ إلى نهار، كنّا تائهينَ حيارى لا ندري ماذا علينا أنْ نفعل، حاولنا معرفةَ أين نحن؟ وكيف انتقلنا إلى هذا المكان؟ كُنّا نُدوّن كلّ ما نراه، فعارفُ رسمَ الحجر قبل أن نقسمه، ورسمتُ أنا المكان الذي انتقلنا إليه، رأينا بحرًا وجبلًا وغابة فاخترْنا أن تكون رحلةُ الاستكشاف من الغابة، لم يكنْ هناك ما يُثير الرعب في نفوسنا، لكنّنا مذْ وطئت أقدامُنا الغابة قوّةٌ خفية بثّتِ الرعب في نفوسنا، مضينا في طريقنا نتلفّت حولنا فأوهنَنا التعب، بتْنا ليلتنا الأولى في العراء، استيقظْنا على هزّةٍ من رجالٍ يتحدّثون لغةً لم نفهمها، تحدّثنا إليهم بالعربية والإنجليزية ولم يفهموننا، تواصلنا معهم باللّغة التي لا تحتاج للسانٍ ناطق، اتّفقنا بلغة الإشارة أن يصطحبوننا إلى مكانهم؛ فربما هناك نعرفُ أينَ نحن، ذهبنا معهم إلى جزيرةٍ مجاورة للتي كُنّا فيها، وجدنا أُناسًا يعيشون حياةً بدائيةً في قبائل، يسكنون الأكواخَ ويتحدّثون نفس اللغة الغريبة، استضافنا رجلٌ منهم في كوخه، مكثنا عندَه يومًا ثمّ في اليوم التالي دخلَ علينا ومعه رجلٌ

حينما رآنا ابتسم، تفاجئنا به يتحدثُ بحروف عربيةٍ قائلًا «وكأننا مكتوبٌ على جِباهنا أننا عربٌ يا إخوتي»، تهلّلت أساريرنا وسألنا في صوتٍ واحد «هل أنتَ عربي؟!»، احتضننا وهو يبكي كأنّنا نعرفه منذ زمن! ثمّ برّر قائلًا «أنا أخوكم أسامة، لا تدرون كم أشعر بالتيه! كم اشتاقتْ أذني لأنْ تسمع جملةً واحدة بالعربية! تحدّثوا وأمتعوا سمعي بحروفكم»، اصطحبنا إلى كوخه، أكرمَ ضيافتنا، حدّثناه عن أحوال بلاد العرب، وتفاجئنا حينما عرفنا أننا في «إندونيسيا»، استنكر تعجّبَنا، نظر للبابِ ثمّ سأل هامسًا «هل أتيتم بحرًا أم برًّا أم مثلي نقلتكم البوّابة، أقصد الدوّامة؟» سيطرت الريبةُ على نظراتنا ثمّ سألته «هل أتيت إلى هنا بفعْل الدوّامة؟» سكتَ هُنيهةً ثمّ قال «سؤالُك أجاب عن سؤالي، إذًا لديكم الحجر؟» أخبرنا أنّه كان أيضًا لديه جزءٌ من الحجَر الأزرق ورثه عن أبيه، تسبّب الحجر في موت أهله،كان لعنةً في حياته فأتى إلى هنا ليتخلّص منه، وحدث معه كلّ ما حدث معنا، لكنّه لم يفكّرْ في العودة بعدَ موت أهله، أحبّ فتاةً من أهل الجزيرة ساعدته، تزوجها واستقرّ هناك، نصحنا بإعادة الحجَر، وأخبرنا عن مكانِ بوابة العودة، عرفنا أنّها تُفتحُ تلقائيًّا بعد الحصولِ على الحجَر في المرّة الأولى، ثمّ بعدها علينا أن نفتحَها من مكانٍ محددٍ في الكهف، أنهى حديثَه قائلًا «لكنّكم لن تتمكّنوا من العودة من نفس البوابة بعدما تُعيدون الحجر لأنّ وجودَه مفتاحها» عرفنا منه كلّ التفاصيل التي مرّ بها، وكنت أُدوِّنُ كل شيءٍ خلفه، كما رسمت خريطةَ الوصول للكهف، كنتُ مؤيدًا لرأيه حول إعادة الحجر لكنّ عارف وفاروق لم يوافقاني الرأي، أقنعاني يومَها أنْ نحتفظ به لفترة، ثمّ وعداني بالعودة لإعادته، علمَ صديقنا «أسامة» بقرارنا، حذّرنا مرّة أخرى ولمّا لم نستمعْ

لتحذيره أوصلنا إلى البوابة، ثمّ ودّعنا، ضمّني وقالَ بعيونٍ دامعة «أيمكنكم العودةُ لزيارتي؟» ابتسمتُ له مُطمئنًا، فقبض على كفّي وقال «أستحلفُكم بالله أن تدفنوني في أرضي»، قطعتُ له وعدًا ثمّ وضعنا الحجر في المكان الذي اكتشفَ أسامة أنّه البوابة، تشابكت أيادينا، ثوانٍ وابتلعتنا الدوامة، أعادتنا أمامَ الكهف، معَ أوّل لحظةٍ استعدتُ فيها الوعي قلت لهم «هيّا بسرعة، علينا أن نبحث عنْ كامل في الداخل» أوقفني عارف قائلًا «لقد ماتَ كامل يا شمس، أتظنّ أنه حيٌّ بعد كلّ ما حدث!» زجرتُه ثمّ قلتُ غاضبًا «أسَتَأتيان معي أم لا؟» صمتُهما أجابَ بالنفي؛ لذلك أخذت علبةَ الثّقاب من حقيبة فاروق، وجدتُ بقايا الشعلة عند الباب، أشعلتها ثمّ تركتُهما أمام الكهف ودخلتُ إليه على بصيصِ الضوء الوحيد الذي كان بحوزتي، وصلت لنهاية الممرّ حيث فقدْنا كامل، ولم أجدْ لا الأحجار المُتساقطة فوق رؤوسنا ولا الضوء الأزرق الذي رأيناه من قبْل! كان المكان ساكنًا تمامًا، اقتربتُ من البحيرة، تجاهلتُ رهاب الماء، وخلعتُ ملابسي، وقبيلَ قفزتي سمعت صوتَ فاروق «انتظر يا شمس سأقفزُ أنا»، رمقتُه بلوم فقال «لا تلُمْني على خوفي، ما رأيناه ليس هيّنًا يا أخي»، بدا مُترددًا يتلفت حوله، ثمّ قال بصوتٍ أقربَ للهمس «لو رأيت الكائنَ الذي كان يجثم على جسدك لما فكّرتَ في العودة إلى هنا مرّة أخرى، لقد كادَ يفصل رأسك عن جسدِك يا رجل!»، قلت «أنْ يفصل رأسي عن جسدي وأموتَ بشرفٍ؛ خيرٌ من العيش وأنا أرى نفسي ندلًا ترك أخاه للموت»، لم يقلْ شيئًا هذه المرّة، فسألتُه عن عارف، أخبرني أنّه ينتظرنا أسفل الجبل وإذا تأخّرنا سيأتي لمساعدتنا، خلعَ ملابسه وقفز، حال الظلامُ بيني وبين رؤيته، انتظرته والقلقُ يأكل قلبي، مرّت ثوانٍ

ثقيلة ثمّ أخرج رأسَه ويديه، سحبته إلى الخارج، التقط أنفاسَه ثمّ قال «لم أجدْ جثّة كامل في الأسفل، حاولت أن أتحسّس وجودها في الظلام لكنّي لم أجد شيئًا!» ثمّ تابع بحروفٍ أسَرَها اليأس «ألم تسمعْ ما قاله أسامة يا شمس؟ لا داعي لمحاولاتنا لقدْ فقدْنا كامل»، عدْنا إلى عارف بِخُفي حُنين، ثمّ تسلّلنا إلى بيتي، هناك ارتديْنا جلابيبَ وأوشحةً وتسلّلنا إلى بيت عرفة الحداد، قسّم لنا الحجرَ وصنعَ القلادات، ثمّ رحل عارف وفاروق ومكثتُ أنا في الصعيد، لقد وعداني بالعودةِ لإعادة الحجر، لكنّ غيبتهما طالتْ، ثمّ بثّ الحجرُ الطمع في نفوسنا فتناسينا أمرَ إعادته، كنت أصعدُ إلى الجبل كثيرًا، أبحثُ عن كامل حتّى يئست، تذكرت وعدي لأسامة بعدَ فترةٍ فذهبتُ عبر البوابة لزيارته، ثمّ كرّرت الزيارات وتكوّنت بيننا صداقة حميمة إلى أنْ وافته المنيّة، فنفّذت وصيته ودفنتُه في وطنه.»

توقّفت حينما شعرتُ بالتعب، فتابع توأمها القراءة:

«كنّا دومًا نسأل الجدّةَ عن حرّاس الحجر، هل هم من البشر؟ وفي كلّ مرة تغير دفةَ الحديث حتى أصرّ أربعتنا عليها ذاتَ مرّة، فأخبرتنا أنّ للحجر نوعين من الحراس ليسَا من البشر، أحدهما موكّلٌ بحماية الحجَر من سرقته، والنوع الآخر هُم حراس ساحرٍ يدعى «برجاس»، سرقَ الحجر ولم يهنأ به بعدَ أن أصابه المرض ولم يستطعْ إنقاذ نفسه، فوضع الحجرَ في الكهف وعيّن حُرّاسًا عليه يُشبهون حُرّاسه الأصليّين؛ ظنًّا منه أنّ هناك حياةً أخرى سيُخلّد فيها ويستردّ الحجر، لم يعلم جدّي نوع هؤلاء الحراس، ما عرفناه منه أنّهم ليسوا بشرًا، لكنْ يمكنهم أن يستخدموا أجسادَ البشر كبوابة للعبور لعالمنا، ومقابل العبور هنا يفقدونَ قواهم، وإذا طُعن البشريّ المستخدم كبوابة في

قلبه حينها يُقتل الحارس، الفرقُ بينهما أنّ الحارس الأصلي كلّ همّه أن يبقى الحجَر في مكانه في كهف بيرو، أمّا الآخرُ فكلّ همّه أن يحرسَ الحجر لعودة سيده، يمكن التفرقةُ بينهم من عيونهم، فالبشري الذي يستخدم جسدَه حارسٌ من حرّاس برجاس يكون بؤبؤا عينيه مشقوقين طوليًّا، وحولهما هالةٌ حمراء. لقد استطعتُ الحصولَ على كلّ كتب برجاس التي مُنعت من النشر، علمت أنّ هؤلاء الحرّاس ضعفاءٌ في غياب سيدهم، مصيرهم مرتبطٌ بالحجر، إذا سُرقَ وانقسمَ عُوقِبوا بالسّجن في الكهف، وإذا اجتمعَ تحرّروا، لهذا السبب سارعنا بتقسيمه، كان لديّ أملٌ أن يكونوا قدْ سجنوا كامل في الكهف، ويُمكننا أن نجمع الحجَر ونعيده فيتحرّر كامل، ولكن ما قرأتُه في كتب برجاس أخبرني أنّهم يقتلون مَن يقترب منهم، وأنّ الله يحبّنا أنْ خرجنا من الكهف أحياء، احْذروا منهم جيدًا، إنهم يتغذون على الفرقة والطّمع، ويخشون الاتِّحادَ والنار، لقد أنقذني فاروق بالنّار من واحدٍ منهم كاد يقتلني، حاربوهم بيدِ رجلٍ واحد ولا تفرّقوا، وإذا غلبتكم النفسُ الأمّارة بالسوء ودفعتكم نحو الطّمع؛ حاربوا بكلّ ما أُوتيتم من قوّة، لا تكونوا جبناء كما كُنّا، واحذروا من يخطفهم حرّاس برجاس؛ فمَن يقع في قبضتهم لا يعدْ أبدًا كما كانَ فلا تأمنوه، عليكم أن تجدوا شخصًا يصاحبكم في رحلتكم لا يملكُ شيئًا من الحجر، هو وحده يستطيع تذكيركم بالخير الذي يكمنُ داخلكم، هو وحده يستطيعُ حمايتكم من أنفسكم «

توقّف حسين عن القراءة، ونظر إليهم، فقال فؤاد:

– الآن فهمت، ألم تخبرْنا يا شمس أنّك حينما لمستَ الجثثَ رأيت رجلًا يأمرهم بملاحقتنا وإحضار الحجر، ولم ترَ وجهه؟

أومأ شمس، فتابع فؤاد:

- أظنّ هذا الرجل هو البوابة التي يقصدُها جدّك ولم يستطعْ حارس الحجر سرقته منّا بنفسه لأنّه ببساطة فقدَ قواه، لذا استخدمَ الرجال الذين قاموا بمهاجمتنا وسيُكرّر فعلته.

عقّبت زهرة وهي تُومئ برأسها:

- أتّفق مع فؤاد، تفسيره منطقيّ جدًّا.

تابعَ فؤاد بحماسٍ بعدَ تأييد زهرة لرأيه:

- كما أظنّ حسناء هي الصاحب الذي سيحمينا من أنفسنا.

نظرتْ إليه حسناء حينما ذكرَ اسمها، تلاقتْ عيونهما للحظةٍ قبلَ أن يدفعها الحياءُ لأنْ تغضّ بصرها، قال حسين:

- حسنًا نوافقُكم الرّأي، لكن كيف سنصل للكهف؟!

أخذتْ حسناء الدفترَ من يد أخيها وتابعتِ القراءة، ظلّت تقرأُ التفاصيل الباقية في الرحلة حتّى أنهت سطورَ الدفتر ولم يجدوا لا اللغز ولا الخريطة! قلّبت صفحاتِه مرّة أخرى ولم تجدْ شيئًا، لمح شمس كيسًا من القماش في قاع الصّندوق، التقطه ثمّ فتحه، فوجد ورقة مطويّةً من نوع ورق الدّفتر المتين، وأكبر حجمًا منه، اتّسعت ابتسامته وهو يفتحها ويرى الخريطةَ مرسومة، فردَها أمامهم على الطاولة، تفحّصوها ثمّ نصحهم فؤاد أن يبدؤوا في التحرّك بسرعة قبل أن يصلَ إليهم رجالُ حارس الحجر، حزموا في حقيبةٍ الدفترَ والخريطة، أمتعتَهم وأوراقهم الخاصة، ثمّ انطلقوا نحو الجبل.

غادروا قبلَ أن تلحقهم ثلاثُ سيارات دفْع رباعي وقفت أمام البيت، هبط منها رجالٌ ضِخام، كسروا بابَ البيت وقلَبوه رأسًا على عقب فلم يجدوا أحدًا.

***

وصلوا أمامَ الكهف، التقطوا أنفاسَهم، ثمّ فتحوا ورقةَ الخريطة وسلّطوا عليها ضوء مصابيح هواتفهم، وجدوا اللغز مُدوّنًا في ظهرِ ورقة الخريطة، قرأ فؤاد للمرة الثانية بعد مرّتهم الأولى في البيت «انظرْ إلى النّسر مكسورِ الجناح، ستظنّ أنّه أضعفهم، لكنّك لو دقّقتَ النظرَ في عينيه سترى القوّة، بعد خمس ستُطلعك عيناه على سرٍّ من أسرار الكون، ستأخذُك إلى عالمٍ آخرَ ستكتشفُ فيه أنّك في مكانِك الصحيح»، وكالمرّة الأولى لم يفهموا شيئًا، فقال شمس:

- لندخلَ إلى الكهف أوّلًا؛ أظنّنا سنفهمُ حلّ اللغز في الداخل.

أضاءَ حسين وشمس المصباحيْن اليدويّين اللّذين أحضرَاهما معهما، ثمّ تقدّمَا المسير، دخل خمستُهم إلى الكهف، ثمّ توقّفوا بالقربِ من الباب حينما هتفت زهرة:

-توقّفوا، انظروا إلى الحائط!

وجدوا ذات الرّسومات التي وجدوها على المخطوطات، وفي دفتر شمس الدين، صوّب شمس وحسين المصباحيْن نحو الحائط، كلّ منهم يتأمل الرسومات والرموز الغريبة عليه، اتّسعت عينا شمس شيئًا فشيئًا وهو يُتمتمُ كلماتِ اللغز، ثمّ أعطى المصباح لفؤاد واقترب مِن الحائط، وقف أمامَ

رسمة لغصنٍ يقفُ عليه خمسةُ نسور، أحدهم بجناح مكسور، قرّب أصبعَه من عيني النّسر فوجد حلقةً حديدية مطْمورة بالترّاب، التفتَ إليهم قائلًا بفرحٍ:

– أظنّ حلّ اللغز في هذه الرسمة.

اقتربَ أربعتهم ثمّ جذبَ حسين الحلقة فانفتح بابٌ دائري صغير، وجدوا فيه مكانًا لوضع الحجَر، فأسرعوا وقرّبوا قلاداتهم من المكان، وضعوا الحجَر كاملًا فيها، ثمّ تشابكت أياديهم وتمسّك حسين بتوأمِه جيدًا، انتظروا خمسَ دقائق ولم يتغير شيء! سأل حسين باستنكار «أكانَ المقصود ببعْد خمس أنّنا سننتظر على هذا الحال خمس ساعات؟!» فقالت زهرةُ باستنكار «لاً أظنّ ذلك يا حسين أننتظرُ خمسَ ساعاتٍ من أجل فتح بوابة تنقلنا لمكانٍ آخر في ثوان!» فسألَ «إذًا، ما المقصودُ ببعدٍ خمس؟»، تبادلوا النظرات الحائرة وهم يفكّرون في حلّ اللغز، اهتزّت يدُ حسينٍ فاصطدمتْ بحلقةٍ تُشبه الزّنبُرك بجانب المكان الذي وُضع فيه الحجَر، لفّها ثمّ هتف «عرفتُ الحل، هيّا تمسّكوا جيدًا واستعدّوا»، بعدما استعدّوا قام بلفّ الحلقة خمسَ مراتٍ، شعروا بعدَها باهتزاز الكهف، سمعوا صوت الدوّامة، كان مُرعبًا فقبضوا على أياديهم بقوةٍ أكبر، ثوانٍ وابتلعتهم الدوّامة، استعادوا وعْيَهم فوجدوا أنفسَهم في وضَح النهار على شاطئٍ، ويُداعبُ الموج أقدامهم، ابتعدوا عن الماء ثمّ نظروا خلفَهم فلم يجدوا الجَبلَ ولا الغابة، لا شيء مما وصفَه شمس الدين في دفتره! ساروا متخبّطين خطواتٍ إلى أنْ وجدوا بشرًا، كان هناك الكثير ممن يحملون الملامح الأوروبية، ويرتدون ملابسَ السباحة، اقتربت زهرة من امرأةٍ تجلسُ بالقرب من الشاطئ وسألتْ بالإنجليزية عن المكان، ثمّ عادت إليهم وقالت:

- نحنُ في جزيرة بادنغ، عاصمة سومطرة الغربية، بإندونيسيا يا سادة!

التفتَ أربعتهم نحوَ حسين وسألوا بغضب في آنٍ واحد «كم مرّة قمت بلفّ الحلقة يا حسين؟»، ضربَ جبهته وقال آسفًا «يبدو أنّني لم أحسبِ اللّفة الأولى!».

***

وكلّما شاهدتَ فيلمًا، مسلسلًا، أو قرأتَ
روايةً؛ أبدأ بالنهاية؛ لأطمئنّ أنّني لن أُصابَ
بحمّى الفقد.

## (١١)
# مخاوف

في صالةِ بيتٍ تُحيطُ به حديقةٌ غنّاء، في جزيرة بادنغ- عاصمة سومطرة الغربية- بإندونيسيا، يلتفّ الخمسةُ حول المائدة بعدَ وصولهم إلى سومطرة في الصباح في بيتٍ استأجره فؤاد ليمكثوا فيه إلى أنْ تنتهي مهمّتهم، قضوا اليومَ نائمين ثمّ استيقظوا تِباعًا، يتناولون عشاءهم، والصمتُ يأسِر حروفهم، أُطلقَ سراح حروف فؤاد فقال:

- سنمكثُ هنا يومين، أحاول إيجادَ مرشدٍ لنا؛ فالخريطةُ وحدها ليست كافيةً مادمنا لا نعلمُ شيئًا عن المكان.

قالها وهو يرمقُ «حسين» بغضبٍ، فتصنّع الأخيرُ الانشغالَ بالطعام، قال شمس:

- لا ذنبَ لحسين فيما حدث، بل علينا أنْ نشكره لأنّه استطاع الوصول لطريقة فتح البوّابة، ثمّ إنّنا لم نبعدْ كثيرًا عن الجزيرة، من الجيّد قضاءُ يومين راحة؛ فرحلتنا كانت مُرهِقة.

نظرَ له حسين بامتنانٍ، ثمّ عاد الصمتُ لأسْر حروفهم، انتهوا من العشاء وتفرّقوا، حسين مازال يُريد النومَ فصعدَ لغرفته، وشمس يشعرُ برغبة في استكمال مسوّدة روايته، ففتح حاسوبَه وجلسَ يكتب على الخوان بعد أنْ رفعوا الطعام، فؤاد يطمئنّ على شركاته، والفتاتان تّشاهدان فيلمًا أجنبيًّا على التلفاز، كلٌّ في ملكوته، في غفلةٍ عن العيون المتلصّصة التي تُراقبهم من الخارج.

***

يتناولون غداءهم أمامَ الشاطئ،لم ينعموا بهذه الراحة منذُ وقتٍ طويل، تركهم فؤاد وذهب للسّباحة، وشمس وحسين وزهرة ذهبوا في جولةٍ بالقارب، أمّا حسناء فتخشَى الماء، آثرت أنْ تنتظرهم قربَ الشاطئ، تستثمر الوقتَ بالقراءة، وأربع عيون تراقبها، هي أول فريسة جاهزة الآن، جهّز أحدهما محقنًا في يدِه واقتربا منها في نفس اللحظة التي خرج فيها فؤاد من الماء راكضًا نحوها، فأربكهما وتراجعَا عن تنفيذ الخطة، وقف أمامها عاري الصدر فشعرتْ بالارتباك وولّتْه ظهرها، ابتسم وهو يلتقطُ المنشفة ويمسح جسده ثمّ ارتدى قميصَه وجلس، تابعها تُحاول السيطرةَ على ارتباكها وتتصنّع القراءة ومازال مُبتسمًا، قرّر مُشاكستها فسأل:

– لم يعودوا مِن رحلتهم بعْد، أليس كذلك؟

نظرتْ إليه بذنبِ عينيها فوجدتْه مُرتديًا قميصه، عادتْ لجلستها الأولى وأومأت، صمتَ برهة ثمّ قال:

– لقد كان لديّ رهابٌ من الماء مثلك تمامًا.

سألتْه والدهشة باديةٌ في صوتها:

– كيف عرفـ

لكنّها لم تكملْ سؤالها حينما تذكّرت موهبته، وما حدث بينهما في بيت الصعيد، ابتسم وهو يسترسل:

– أتعلمينَ يا حسناء! كنت شخصًا جبانًا يخشى كلّ شيء، كدت أغرق ذاتَ مرّة فأصبح لديّ رهابُ الماء، لعبتُ مع أبناء خالتي فحبسوني في صندوق ضيق فأصبح لديّ رهاب الأماكن الضيقة، تابعت مسلسلًا وتعلّقت بالبطلَ

فماتَ في نهايته في نفس اليوم الذي ماتتْ فيه أمّي فأصبحت أخشى الفقد، وكلّما شاهدت فيلمًا، مسلسلًا، أو قرأت روايةً أبدأ بالنّهاية لأطمئنّ أنّني لن أُصاب بحمّى الفقد.

تابعتْ حديثه باهتمامٍ ثمّ كسَا الحزنُ ملامحها وهي تسمع باقي حديثه:

– استمرّ الأمرُ معي إلى أن أدخلني أبي مدرسةً داخلية، بدأتُ فيها الاعتماد على نفسي، ثمّ من بعدِها الكلية الحربية، إلى أنْ مات أبي وجدّي وتركَا لي صرحَ الحداد، فتركت الحربية وخرجتُ إلى سوق العمل، أتعلمين.. لقد حاربتُ كلّ أنواع الرهاب التي أصابتني وتعافيتُ يا حسناء إلّا رهابَ الفقد، لم أستطع أن أتعافى منه حتى الآن.

يعلمُ أنّها ستظلّ صامتة كعادتها، فأراح ظهرَه ورأسَه على ظهر الكرسي وأغمض عينيه، تفاجأ بها تتحدث:

– هنيئًا لك أنّك تخلّصت من بعض مخاوفك، لكنّني مازلت جبانة، أنا حتى لم أحاول التخلّصَ من خوفي!

اعتدلَ في جلسته وقال:

– خوفٌ واحد إذا تخلّصتِ منه تستطيعين التخلصَ من باقي مخاوفك.

قالت مستفهمةً:

– عن أيّ خوفٍ تتحدث؟

تردّد قبل أن يقول جُملته، لكنّه في النهاية حسمَ الأمرَ وقال:

– ليس كلّ الرجال كأبيكِ يا حسناء.

انتفضَ جسدُها ووقفت كالملسوعة؛ لقد عرّى أكبرَ خوفٍ تخشاه وتخشى أن يعلمه غيرها، خافَ من ردّ فعلها فلاذَ بالصمت، وتركها تطلق سراحَ الوحْش الكامن في قلبها، وحشًا أسرَتْه لسنوات داخلها، ورغم أنّه أسيرُها ظلّت تخشاه طوالَ هذا الوقت! بدا صوتها مُختنقًا وهي تصرخ في وجهه:

- بلْ كلّهم كذلك، لقد هربَ مع أخرى وترك أمّي تموتُ كلّ ليلةٍ بحسرتها، أتعلم كم مرّة احتجناه ولم نجدْه؟ لم نكنْ طفلين سويّين لوْلا جدّي، لولا وجودُه تخيّل ماذا كنّا سنفعلُ بعدَ موت أمي؟ أمن العدل أن يترك طفلين من صلبه ليربي أطفالًا من صلب رجلٍ آخرَ لامرأة سرقتْه من زوجته وأطفاله؟ حتّى أخي حسين، ظلم زوجته وعذّبها رغم عشقه لها، لقد دفعَها للانتحار، الغدرُ صفة لصيقة بالرجال، فلا تأتِني الآن لتقولَ بمنتهى السهولة ليسَ كلّ الرجال كأبيكِ!

أنهتْ جملتها بأنفاسٍ مُتلاحقة، كان صدرُها يعلو ويهبط بقوةٍ، لم تقوَ قدمُها على حملها فجلست، ظلّت تحاربُ دموعها حتى هُزمتْ في المعركة، وفاضت عيناها بكلّ دمعةٍ حبستْها، جسدُها يهتزّ من أثر البكاء، فرقّ قلبُه وندم على تحرير الوحْش، شعر برغبةٍ في ضمّها في هذه اللحظة، أرادَ أن يُخبّئها بين ذراعيه ويقسِم لها أنّه ليس كأبيها، وأنّه سيحْميها ويشدّ على يديها إلى أن تهزم كلّ مخاوفها، ظلّ جانبها صامتًا إلى أن توقّفت عن البكاء، وهمستْ بحروفٍ متقطعة «آسـ آسفة»، قال باسمًا:

- أتعلمينَ يا حسناء! ظننتُ عينيكِ حينما تضحكينَ أجملَ عينين رأيتهما، لكنّي اكتشفت الآنَ أنهما حينما تبْكيان أجمل!

حملقتْ فيه بدهشةٍ، توقّع أنّها ستصبّ جامَ غضبها عليه، لكنّه تفاجأ بها تبتسم بسخرية وتقول:

– أتعلم! هذه المرّة الأولى التي يخبرني فيها أحدٌ أنّ هناك شيئًا جميلًا فيَّ، طوال حياتي لم أسمعْ سوى كلمات التنمّر الجارحة على لوْن بشرتي وملامحي.

لمعتْ عيناه وهو يقول:

– ربّما لو رأوكِ بعيني لكتبوا قصائدَ في الغزل، أنتِ اسم على مُسمّى يا حسناء.

صبغَ الخجل خدّيها بحُمرته، وعقدَ لسانها، التقت عيونهما للحظةٍ، كلّما حاولت إبعاد عينيْها فشلت، ثمة حوارٌ يدور بين العيون، حسدتْ زهرة في هذه اللحظة على موهبتها كما فعل فؤاد؛ وتمنّى كلّ منهما أن يسمع ما يدور بخلدِ الآخر، أمّا عن تلك التي يحْسدونها فهي جالسةٌ على متنِ القارب تتلظى بعذابِ هذه الموهبة وهي تستمع لأشعار الغزل، التي ينسجُها شمس في رأسه، وتتظاهر بعدم سماعها، أصبح التظاهرُ بالنوم للهرب وسيلتَها وسمّاعات الأذن رفيقتَها، تضعُها مُظهرةً لا مبالاتها بما يدور بباله، ما أقسى التظاهرَ بالهدوء وداخلك براكينٌ تغلي! عاد الثلاثة للشاطئ، رسمت حسناء ابتسامة مُصْطنعة حينما رأتهم، سألتهم عنِ الرّحلة فأخرجت زهرة هاتفها وأرتْها الصور، ثمّ سأل حسين وشمس «فؤاد» عن المرشد، وأخبرهم أنّه سيأتي لزيارتهم غدًا في المساء، ظلّوا جالسين أمام الشاطئ يتَسامرون ثمّ عادوا للبيت عند حلول الليل.

***

جاءَ الصباح والشمسُ تبرز على استحياءٍ، وتضيفُ على كلّ شيءٍ لمسةً من الدفء، ثمّ تعاودُ الاختفاء هاربةً من السّحب الرمادية الباردة، التي انتصرت في النهاية واطفأت نور الشمس، لم ينمْ جيدًا، طوالَ الليل يتقلّب في الفراش، راقب ولادة الشمس- التي لم تدمْ طويلًا- من نافذته، كان الصباح رماديًّا، حتى لمحها تجلسُ على الشاطئ أمام البيت فتلوّن صباحُه بألوان قوسِ قزح، قرّر أن يشاركها الجلوس أمام الشاطئ، وقبل أن يهبط لأسفل لمحَ رجليْن يقتربان منها، ناداها فلم تسمع، أحدهما غرزَ شيئًا في عنقها، لم ينتظرْ أكثر من ذلك؛ دخلَ إلى غرفته، التقط مسدسَه وهبط الدرج مُسرعًا ثمّ خرج من البيتِ راكضًا نحو الشاطئ، لمحهما وهُما يحملانها بعيدًا عن البيت فأطلقَ رصاصةً أصابت قدمَ واحدٍ منهما، ورغمَ رصاصته مازالا يهربان إلى أنْ أطلق رصاصة أخرى فأصابت القدمَ الثّانية للرجل، سقط أرضًا وهربَ الآخر حاملًا حسناء، ركض فؤاد نحوه، جذبه من تلابيبه سائلًا عن هويّتهم، وماذا يريدون منها؛ فلم يرد، لكمَه وهو يصرخ في وجهه «إلى أينَ أخذها أيّها الحقير أخبرني مَن أنتم؟ وماذا تريدون منها؟» ظلّ يلكمَه فقال:

- لا نريدها هي، بل أنتم، هي محضُ مصيدة للإمساك بكم.

صرخَ في وجهه:

- أخبرني إلى أينَ أخذها؟

أجابَ الرجل بهدوءٍ مُستفزّ:

- سيخبركم سيدي في الوقت الذي يريده.

أنساه قلقُه قدرتَه على معرفة كلّ شيءٍ بموهبته! خلع القفازات الجلدية التي يرتديها الرجل، ومسّ يدَه، بدأ يرى كلّ شيءٍ عنه إلى أن توقّف عند سيدهم وهو يأمرهم بإحضارها لبيتٍ في نفس الجزيرة، كان سيعرف أكثرَ عن مكان البيت لوْلا أن انقطعت الرؤيا فجأة؛ حينما انتبه فؤاد إلى المدْية التي غرزَها الرجلُ في يده، تأوّه فؤاد وأفلته، استطاع الآخر الاعتدالَ من نومته، استغلّ انشغالَ فؤاد بألم يدِه، وكادَ يغرز المدْية في قدمه لو لا أنْ ضغط فؤاد على زندِ مسدسه فأرْدَى الرجلَ قتيلًا، أصبح من الموتى ولن يستطيع الاطّلاع على باقي الرؤى، تمنّى لو أنّ «شمس» موجودٌ الآن، لن يستطيعَ العودة إليهم، عليه أن يتحرك بأقْصى سرعة فتركَ رسالةً لشمس معَ هذه الجثة، أخبره بما رآه حينما لمسَ يدَ الرجل كما أخبرَه باسْم المكان الموجودِ فيه البيت، حمل الجثة ووضعها بالقرب من السيارة، ثمّ انطلق بسرعةٍ، يحاولُ إيجادَ شخصٍ يفهم لغته ليسأله عن طريق الوصول.

***

استيقظتْ زهرة ولم تجدْ حسناء في غرفتها، حينما تذكّرت أنّها تحبّ الجلوس أمام البحر في الصّباح الباكر. نظرتْ من النافذة ولم تجدْها، بحثتْ في الطابق العلوي ولم تعثر على أثرها فهبطتْ لأسفل، وجدتَ «حسين» و«شمس»، سألتهما عنها فظهرَ القلقَ على وجه حسين، سمعوا هاتفَ فؤاد بلا إجابة منه، صعدَ شمس لغرفته ولم يجدْه، وقبل أن يخرج تذكّر أنّه رأى البارحة مسدسَ فؤاد جانب سريره، والآن لم يجده كما لم يجد «فؤاد»، أدركوا أنّ ثمة خطرًا حلّ بهما، تسلّح كلّ منهم بما وقعت عليه يدُه في البيت، وانطلقوا إلى سيارتهم، تفاجئوا بجثةٍ بالقربِ من السيارة، ركضوا نحوها وقد بلغ إحساسُ الخطر مبلغه منهم، وعلى الفَوْر لمس شمس الجثة، فرأى كلّ ما حدث، ثمّ الرسالة

التي تركها فؤاد لهم، تركَ الجثة ونظرَ إلى زهرة قائلًا «دوّني هذا العنوانَ بسرعة»، دوّنته ثمّ ركبوا السيارة وهو يُخبرهم بما رأى بدون تفاصيلِ خطف حسناء؛ كي لا يؤلم قلبَ أخيها، الذي كادَ يجنّ من القلق عليها.. سألت زهرة «أتعرف كيف سنصلُ لهذا العنوان يا شمس؟»، أجاب «لا أعلمُ، لكنْ يمكننا أن نسألَ أو نوقِف إحدى سيارات الأجرة ونسيرَ خلفها»، قال حسين بانفعالٍ «افعلْ ما يحلو لك، لكنْ أسرِع يا شمس».

حاولتْ زهرة أن تُطمئنه قائلةً «اهدأ يا حسين، ألم تسمع «شمس»؟ فؤاد لحق بهما وسيحاولُ إنقاذها حتى نصل إليهما».

***

وصلَ إلى المنطقة المنشودة، وفوجئ بأنّ كلّ المنازل تحمل ذات الشكل الذي رآه، زفر بضيقٍ جاهلًا بما عليه فعله، ثقلَ عليه خاطرُ أن يطرق كلّ بابٍ ليعرف أهو المقصودُ أم لا! سمعَ صوتَ باب البيت الذي يقف بالقرب منه فاختبأ، تهلّل قليلًا حينما رأى الرجلَ الذي خطفَ حسناء يخرجُ من البيت، فعلم أنّه وجدَ وجْهته، انتظر إلى أنْ ركب الرجل سيارته ورحل، فتسلّل إلى البيت، أخذَ يصول بعينه ويجول بحثًا عن شيءٍ مميزٍ يضعه كعلامة لهم حينما يصلوا، ولمّا لم يجدْ خلعَ القميص الذي يرتديه ووضعه على صندوق الرسائل الموجودِ أمام بابِ البيت، ثمّ خلع القلادة ووضعَها في جيب القميص، دار حول البيت خفْيَةً، يبحثُ عن مكانٍ يستطيع الدخولَ منه، نظر من نوافذ البيت، وجده فارغًا، رفع إحدى النوافذ، ففُتحت بسهولةٍ واستطاعَ التسلّل إلى البيت منها، كان يمشي بهدوءٍ مُختبئًا؛ خوفًا من أنْ يُفاجئه أحدٌ في البيت، جهّز مسدسه وبدأ يفتش الغرف في الطابق السّفلي، إلى أن وصل إلى غرفةٍ

بابُها ضخم، وقبل أن يفتحَها، باغته أحدهم وصعقه بصاعقٍ كهربائيّ في عنقه، فخرّ صريعًا على الأرض.

***

قادَ شمس مُتتبِّعًا السيارةَ التي استأجروها إلى أنْ وصلوا للعنوان فشعروا بالتيه، المنازل كلها تحملُ ذات الوصف الذي أخبرهم به فؤاد، تفرّقوا؛ كلّ منهم يبحث في جهةٍ عن دليلٍ، وجدَ شمس قميصَ فؤاد أمام أحد المنازل، فاتّصل بهم لينضمّوا إليه، وضعوا القميص في حقيبةِ زهرة دونَ أن يمسّوا الحجر، ثمّ داروا حول البيت كما فعل فؤاد، فوجدوا إحدى النّوافذ مفتوحة، تقدّمهم حسين وانتظرَا إشارته خارجَ البيت، فتّش الغرف بهدوءٍ ولم يجد أحدًا، وقف أمام ذاتِ الباب الضخم فشعرَ بحركةٍ خلفه ثمّ امتدّت نفسُ اليد- التي أفقدت «فؤاد» وعيَه- إلى عنقه بالصاعق الكهربائي.

***

المكانُ يسبح في الظلام، هناك صوتُ بكاءٍ يتسلّل إلى أذنيه، يحاول التغلبَ على ثقل جفْنيه، استطاع أن يفتحَ عينيه بوهنٍ فبدأ النورُ يتسلّل إليهما رويدًا رويدًا، ها هو يرى هيئةَ شابّ أمامه، صوتُ البكاء يزداد قوةً فالتفتَ بوهنٍ نحو الصوت، رأى طيفَ امرأة، بدأتْ صورتها تتّضح تدريجيًّا، رآها بوضوحٍ وتمتمَ باسمها بخوفٍ وصوتٍ متقطّع «حسـ حسناء»، وكأنّ الذّاكرة عادتْ له فجأةً، وتذكّر ما حدث لحسنائه، عادَ بعينه للرجل الذي يوليهم ظهرَه، وأرادَ أن ينقضّ عليه، فوجدَ يديه مكبّلة في كرسيٍّ مثلها، حاول أن يفكّ الوثاق ولم يستطع، وعلى أثرِ الضّجيج الذي أصدرته محاولاته التفتَ الرجل، حينما رأتْه حسناء توقّفت عن البكاء وجحظتْ عيناها، ابتسم لها ثمّ قال لفؤاد «اهدأ، لا فائدةَ ممّا تفعل الآن».

صرخَ بغضبٍ «ماذا تريد يا هذا؟!»

أجابَ بثقةٍ «تعلم جيدًا ما أريدُه، فلمَ السؤال؟!»

قالَ فؤاد برجاءٍ «حسنًا سأعْطيك ما تريد، لكنْ أطلقْ سراحها».

فقالَ الرجل «ليس بعدُ يا عزيزي، ننتظرُ حتى يصلَ رفاقك، بالتأكيد وصلتهم رسـ»

قطعَ جُملته صوتَ الباب يُكسَر بعنفٍ..

***

كانت ضربةُ الصاعق لسعةً خفيفة لم تؤثّر في بنية حسين الجسدية ولم تفقده وعيَه، وبلكمةٍ واحدةٍ منه أفقدَ الرجل وعيَه، هاجمه اثنان غيرُه فغلبهما، ولمّا تأكد من خلوّ المكان عادَ للنافذة وساعدَ «شمس» و»زهرة» على الدّخول، وقفوا أمام الباب الضخم، فطلب منْهما حسين الابتعاد، اعتصرَ قبضته ثمّ وجّهها نحو الباب فكُسر على الفور، دخل ثلاثتهم إلى الغرفةِ، فوجدوا «فؤاد» وحسناء مُكبّلين في كرسيّين ثمّ انتبهَا لصوت الرجل وهو يقول:

«كنّا ننتظركم، لماذا تأخّرتم؟!»

التفتَ ثلاثتهم نحوَ صاحب الصوت فخرجتْ أعينهم من محْجريها غيرَ مصدّقين أنّ الواقف أمامَهم حقيقي.

***

قبلَ موتكَ تأكّدْ من أنّكَ تسكنُ قلبَ
أحدهم؛ لأنّ القلوب وحدها مَن تُحيي
الأموات.

# (١٢)
# سقوط

التفتَ ثلاثتهم نحوَ صاحبِ الصوت، فخرجتُ أعينهم من محجريها غيرَ مصدقين أنّ الواقفَ أمامهم حقيقي! تمتمتْ زهرة بتلعْثُم «كـ كيف؟!!» وشمس يردّد «غير معقول! مُستحيل..» تجاوزَ حسين صدمتَه سريعًا، لا يريد سوى أن تقرّ عينيه رؤيةُ شقيقته سالمة، ركضَ نحوها وجذبَ الحبلَ الذي يُكبّلها في الكرسي فانقطع، خبّأ جسدَها النحيل بين ذراعيْه، فتشبّثت بضمّته باكيةً، ظلّ يمسحُ على رأسها بحنان حتّى هدأت ثمّ قطع وثاقَ فؤاد، ووقفَ ثلاثتهم جانبَ زهرة وشمس، اللّذين يحاولانِ استيعاب ما تراه أعينهما، سألتْ زهرة بحروفٍ أكلتْ رؤوسها الدهشة:

– هل أنتَ حقيقي؟ هل أنتَ هو بالفعل؟!

جلجلتْ ضحكتُه في المكان، ثمّ قال:

– أجل يا زهرة، أنا كامل الهوّاري، يبدو أنّكم رأيتموني في الصّور بقدر كافٍ لتحفظوا ملامحي، جيدٌ أنّ أجدادكم مازالوا يحتفظون بالصور، ظننتُ ضمائرهم ستُعذبهم بعدما تركوني في الكهف!

لاحظوا بؤبؤيْه المشقوقيْن والهالةَ الحمراء حولهما، ثمّ تبادلوا النّظرات في صمتٍ، فتابع كامل بعيونٍ وصوتٍ يملؤهما الحزن:

– انتظرتُ كثيرًا، لم تطرقْ رأسي لحظة فكرة أنْ يأتيني الغدرُ منهم، كنتُ على يقينٍ أنّ يد واحدًا منهم ستنْتَشلني، كنت مُتيقنًا من عودتهم، وطال انتظاري.

ابتسمَ بسخريةٍ، ثمّ تابع:

– حقيقةً لا أعلمُ كيف أشكرُكم! ظللتُ سجينًا في ذلك الكهف حتى اجتمعتُم فتحرّرت مِن الأسْر.

قال شمس مُدافعًا عن أجدادهم:

– لكنّهم حاولوا ولم يتْركوك إلّا حينما انهارَ الكهف، جدّي عادَ إليك مِرارًا ولم يجدْ لك أثرًا.

قال كامل باسمًا:

– أنا لستُ غاضبًا منهم يا شمس، بل أتمنى لو نقضي سويًّا يومًا واحدًا من أيام شبابنا.

سألت زهرة بتعجّب:

– كيف مازلت شابًّا كما كنت وقتَ اختفائك؟!

ضحكَ ثمّ قال:

– سؤالٌ غريبٌ يا زهرة! مثلًا كأنْ أسألكِ كيف تستطيعين سماع الأفكار؟!

سألَ فؤاد بصوتٍ تشوبُه الحدّة:

– وماذا تريد منّا؟!

صمتَ ثوانٍ ثمّ أجاب:

– الحجر.

أشارَ بسبّابته نحو حسناء وهو يقول:

– في البداية أردتُ أن أُساومكم باختطافِها، لكنّكم أذكى مما توقّعت، أفشلْتُم خطتي للمرّة الثانية.

سألَ حسين بغضب:

– ولماذا تريد الحجَر؟!

ابتسمَ بهدوءٍ، ثمّ قال بثقة:

– لأنّني صاحبه، ألم يخبركم جدّكم كيف حصلْنا عليه؟ ألم يخبركم من عرّض حياته للخطر من أجله؟ آنَ الأوان أن يعود الحجَرُ لصاحبه، ليسَ من أجلي فقط بل من أجَلكم، أعلمُ أنّكم تحلمونَ بلحظةٍ واحدة معَ أجدادكم، ما بالكم بمن يُعيدهم إليكم طوال الباقي مِن حياتكم؟

عادوا يتبادلونَ النّظرات الحائرة، فقرّر ضربَ الحديد ساخنًا، أخذ يُعددُ ما يمكنه فعله لهم إذا حصلَ على الحجر، تبادل فؤاد وزهرة النّظرات، ثمّ عادت تنظرُ لكامل، تزداد عينها لمعانًا كلّما سمعته يتحدّث عن إمكانية عودةِ جدّها، قرأ الوجدَ في عينيها فزاد عزفه على وتَرِها إلى أنْ قالت فجأةً وسط ذهولهم:

– أنا أصدّقك وسأساعدك، سأعطيك الحجرَ مقابل عودة جدّي.

هتفتْ حسناء:

– لا يا زهرة، لا تصدّقيه أرجوكِ، إنّه يخدعكم.

وقالَ شمس بخوفٍ وهو يراها تقتربُ منه:

– زهرة! لا تصدّقيه إنّه كاذب، لا تفعلي أرجوكِ.

حاولَ شمس الاقترابَ منها، لكنّها أوقفته وهي تبكي:

– لا تقترب يا شمس، فجدّي كان أبي وأمّي وعائلتي، كان كلّ شيءٍ لي، مذ رحلَ اهترأت روحي، وحتى الآن لا أعلم كيفَ أطرد الألم الذي استعمرَ قلبي، منذ ولدت وأنا أطردُه بضمّة جدّي، والآن أريد ضمةً واحدةً منه.

ثمَ لمعَ الغضب في عينيها وهي تقول:

– مقابل هذه الضمّة سأدفع عمري.

خشيَ كامل أن تتأثّر بكلامهم فقال:

– لا تستمعي إليهم يا زهرة، أنا لنْ أخدعك، حينما يروْن ما سأفعله لكِ سيتمنّون لو أنّهم مكانك.

تجاهلتْ نظراتهم الخائفة، وصمّت أذنيها عن كلماتهم، ثمّ نظرتْ إلى كامل بثقةٍ، وقبل أن تقتربَ منه فاجأهم فؤاد بقوله «وأنا أيضًا سأدفعُ عمري لأجل ضمّة من جدّي يا زهرة، سأعْطيه الحجرَ مثلك»، ابتسمَ كامل بحبور، اقتربَا منه وسط ذهول الباقين، ثمّ قالت زهرة «اثبتْ لي صدقَ كلامك الآن»، فقال بثقة «حسنًا، أعطني القلادة وسأثبتُ لك»، وضعت يدَها على القلادة، شهقتْ ثمّ أخرجت قلقَها في زفرةٍ هادئة، يدٌ تُحاول خلع القلادة بها وأخرى دسّتها في جيبِ بنطالها وأخرجت سكّينًا دونَ أن يلاحظها، التقطه فؤاد من يدها، وعلى حين غِرّةٍ مِن كامل غرس السّكين في قلبه بقوةٍ وهو يقول «لنْ نسمح لك بتدمير العالم»، وعقّبت زهرة بحروفٍ واثقة «جدّي لم يمتْ لتُعيده لي يا هذا! إنّه حيٌّ في داخلي». صرخَ كامل صرخةً كادت تصمّ آذانهم، ثمّ بدأ جسدُه يحترق، تسمّرت زهرة في مكانها مِن هوْل ما ترى، فجذبها فؤاد وابتعدَا عن جثة كامل التي تحوّلت فجأةً لرمادٍ تناثر في الغرفة.

***

عسعسَ الليل، وما إنْ عادوا إلى البيت غشيَهم النوم، إلّا حسين الذي ظلّ متيقّظًا؛ خوفًا مِن أن يصيب توأمه مكروه، وصلَ المرشد الذي استأجره فؤاد فأيقظهم جميعًا، تعرّفوا عليه وتأكّدوا بلمسةٍ من فؤاد ألّا علاقة له بالحجَر أو الحراس، اتّفقوا على الانطلاق في صباح اليوم التالي. وحينما تنفّس الصبح جهّز كلّ منهم حقيبة صغيرة، فيها كلّ ما يمكن أن يحتاجه في الرحلة، وصلَ المرشد بسيارته فركبَ معه فؤاد وشمس، والفتاتان مع حسين خلفَهم بالسيارة، لم تكنِ الجزيرة بعيدة عنْ بيتهم كثيرًا، فبعد خمسٍ وعشرين دقيقة كانوا واقفينَ أمام جسرٍ قديم، لقد أخبرهم المرشدُ بأنّ حدودَه هنا، لا يستطيعون عبور الجسر بالسّيارات كما أنّه يسمع الكثيرَ من الأساطير عنْ هذه الجزيرة، فرفض أن يغامر بحياته ويكملَ الطريق معهم، أشارَ نحو الجسر في الخريطة ثمّ تسّلم باقي المبلغ وانصرف، وقفوا أمامَ الجسر يتبادلون النظراتِ في صمتٍ، وعيونهم تتلقّف شعورَ الخوف بينهم، تركوا السّيارةَ بالقرب من الجسر، جسرٌ خشبيّ قديم، شعروا بأنّه لن يتحمّل عددهم فعبروه تِباعًا، كان العبور مُخيفًا؛ فالجسر يهتزّ بقوةٍ مع كلّ خطوة يخطونها، تنفّسوا الصعداء بعدما عبروه، نظروا للخريطة في يدِ شمس ثمّ للغابة الكثيفة التي يقفون أمامها، ذكّرتهم حسناء بوصيّة شمس الدين قائلةً «علينا أن نظلّ سويًّا طوال الوقت، كلّما كنّا سويًّا كلما كنّا أقوى» أيّدوا قولَها بإيماءةٍ من رؤوسهم ثمّ ابتلعتْهم الغابة في جوفها، وكأنّهم قُذفوا في مكانٍ آخرَ وقارّةٍ أخرى، كانوا عندَ الجسر في الصباح، والآن يشعرون أنّ النهار يودّعهم، البردُ بسياطه يجلدُهم، يسيرون في تؤدةٍ ووجلٍ؛ خوفًا من المجهول الذي يمكن أن يُلاقيهم، حدّدوا اتّجاهاتهم ثمّ انطلقوا، وبعدَ قضاء وقتٍ طويلٍ في المضيّ قُدمًا، توقّفوا

يتبادلون النّظرات الحائرة، يشعرونَ بأنّهم يدورونَ حول أنفسهم في نفس المكان، قالت زهرة:

– ألديْكم نفسُ شعوري بأننا كنّا هنا منذ قليلٍ؟!

زفرَ شمس بغضبٍ وهو يتأمّل المكان من حولهم، ثمّ قُذفت فكرة في رأسه، سأل الفتاتين:

– هل أجدُ مع أيٍّ منكما محرمًا قماشيًّا أو شيئًا يشبهه؟

أعطتْه زهرة واحدًا كان بحوْزتها، فاقتربَ من إحدى الأشجار وربطه في طرفها، كما أعطتْه حسناء حجابًا طويلًا كان بحوْزتها، شقّه بسكّين وربط كلّ قطعة في الأشجار التي مرّوا عليها في طريقهم، تابعوا السيرَ وكلّما وجدوا إحدى علاماتِ شمس ساروا في الاتجاه المعاكس، إلى أنْ خرجوا من هذه المتاهة، أرهقتهم المحاولات، جنّ الليل فآثروا أن ينتظروا الصّباحَ التالي في مكانهم، أشعلوا نارًا وتجمّعوا حولها، ظلّوا يتسامرون إلى أن زارهم سلطانُ النوم فأذعنوا لأمرِه عدا حسين؛ ظلّ مُستيقظًا للحراسة، ثمّ استيقظ فؤاد وشمس في منتصفِ الليل وبدّلَا نوبة الحراسة معه. تعاقبَ الردفان في يومهم الأوّل، وها قد حلّ صباحٌ جديد، أقاموا أصلابَهم ببعضٍ من طعامهم، ثمّ تابعوا طريقهم، لاحظوا أشياء غريبة قرؤوا عنها من قبْل في دفتر شمس الدين، جعلتْهم على يقينٍ أنّهم يسيرون في الطريق الصحيح، منها الزيادة المفاجئة في درجةِ الحرارة، الأحجار كانت تلمعُ طوال الوقت في قلاداتهم، لم يفْهموا شمس الدين حينما كتب «ستشعرونَ أنّكم محاطون بشحناتِ طاقة عالية» فهموا قصدَه في اللّحظة التي وجدوا فيها هواتفهم يزدادُ شحن

بطّاريّاتها بسرعةٍ إلى أن وصل للمائة! بينما شبكاتُ الجوال اختفت تمامًا منها، ستّون دقيقةٍ مرّت على سيرهم وسط الأشجارِ الكثيفة، يُساورهم شعورٌ بالخطر، ويلحّ على قلوبهم، رغم أنّهم إلى هذه اللحظة لم يقابلْهم ما يُشكّل خطرًا! تسمّروا في أماكنهم حينما اخترق الصمتَ صوت زمجرةٍ، أحاطَ الرجال الثلاثة الفتاتين بظهورهم، وعيونُهم كالصقور تفنّد المكان بحثًا عن مصدر الصّوت، جهّز فؤاد مسدسَه، وشمس وحسين كلٌّ منهما يحملُ في يديه عصا غليظة، مُتحفّزين للقتال، الصوتُ يزداد قوةً وتجهلُ عيونُهم مصدره، وفي صمتٍ اتفقت أعين الخمسة على الرّكض، كانت سيقانُهم تسابق الريحَ إلى أن أوقفتهم رؤية عصبة من رجالٍ ضخام تسدّ طريقهم، الغضبُ بادٍ على وجوههم وحروفهم وهُم يُوجّهون إليهمً حديثًا بلغةٍلم يفهموها! رمقوا الذّئب- الذي يتقدّمهم- بقلقٍ، ثمّ أخبروهم بالإنجليزية أنهم لم يأتوا لإيذاءِ أحدٍ، لكنّهم لم يفهموا! فقالت حسناءُ بحروفٍ عربيةٍ قلِقة «ماذا سنفعل الآن؟»، بعدَ جُملتها خرجَ من بينهم أربعينيّ تفاجئوا به يسألهم بالعربية «هل أنتم عرب؟»، نظروا إليه بدهشةٍ ثمّ تهلّلت أساريرُهم، وقال فؤاد «أجل إنّنا عرب، هل تتحدّث العربية؟»، فقال «أجل، إنّ أبي- رحمه الله- كان عربيًّا، كيف يمكنني أن أساعدكم؟».

أجابَ فؤاد «إنّنا تائهون، نريد مساعدتكم في العبور».

فقال «لا أعلم كيف أتيتُم إلى هنا؟ لكنّي أحذّركم، المكان ليس للسياحة، إننا نعيش بالقربِ من هنا، ولا نزور هذه الغابة سوى للعبورِ منها إلى البحر للصيد أو لقضاءِ حوائجنا الأسبوعية ومعَنا الذئب وأسلحتنا للحماية».

فسألَ حسين «ما الخطرُ الذي تخشونه هنا؟»

أجابَ «الأمرُ يعودُ للأساطير التي قيلتْ عن هذا المكان، هناك قوةٌ خفيّة مجهولة النوع والمصدر تنشرُ الرعبَ في قلب مَن يعبُر من هنا، كما تصيبه بهلاوسَ بصرية وسمعية»

تذكّرت حسناء ما كتبَه شمس عنْ أسامة، فسألت «هل تعرفُ رجلًا عربيًّا يُدعى أسامة؟»

بدتِ الدّهشة على وجهه ثمّ قال باسمًا «لم يكنْ على الجزيرة عربيّ يدعى»أسامة» سوى أبي رحمه الله، كيف تعرفونَه؟»، أجاب شمس باسمًا «لقد كان صديق جدّي».

اتّسعت ابتسامةُ الرجل، وقال «إذًا علينا أنْ نستضيفكم ونُكرم مثواكم».

شكرَه شمس ثمّ قال «نريدُك فقط أن تُساعدنا، هل تعرف كهفًا هنا يسمّى كهف بيرو؟» أسرتِ الصّدمةُ عينيه بعدما سمع اسمَ الكهف وبدَا الخوف ممزوجًا بالغضب في قسمات وجهه وهو يقول «أتركضونَ خلفَ هذه الأسطورة اللعينة؟! لقد فقدنا الكثيرين من شباب جزيرتنا، ومنهم أخي بسبب تصْديقهم لها، عليكم أن ترحَلوا من هنا، وسأخبر أهل عشيرتي أنّكم كنتُم هنا للسياحة، ضللتُم الطريق وتنتظرونَ المساعدة، إيّاكم أن تتفوّهوا باسْم هذا الكهف مرّة أخرى أمام أحدٍ من سكّان جزيرتنا فربما يدفعهم قهرهم على ذويهم إلى قتلكم»، أنهى جُملته ثمّ عادَ للعصبة وتحدّث إليهم بلغتهم، فغادروا المكان وغادر معهم وهو يرميهم بنظراتٍ غاضبة، ظهر الخوفُ في أعنيهم مما سمعوا، دون أن ينبسَ أحدُهم ببنت شفة، تابعوا طريقَهم في صمتٍ يلقونَ نظرةً خلفهم بين الحين والآخر على العصبة- الذين

رحلوا- إلى أنِ ابتلعتهم الغابة، واختفى أثرهم، تابعوا طريقهم فوصلوا إلى مُفترقِ طرق، نظروا للخريطة فلم يجدوا شيئًا واضحًا يدلّهم على الطريق الصحيح، وبينما يتفحّصون الخريطة سمعوا أصواتًا تتطايرُ في الهواء، نظروا خلفهم بريبةٍ فرأوا أشجارَ الغابة الضّخمة تتساقط واحدةً تلوَ الأخرى، سألت زهرة برعبٍ «أهذه الهلاوس التي أخبرنَا عنها الرجل؟!» صرخَ شمس فيهم «ارْكضوا بسرعة» دخلوا من طريقٍ فنشب حريقٌ فيه، سدّ طريقهم وأجبرهم على العودةِ أدراجهم، فلاذوا بالفرار نحو الطريق الآخر، هرْولوا بلا هدفٍ وخلفهم دوّامة لا يعلمون كيف تكوّنت فجأة! كما لا يستطيعون التمييزَ بين الحقيقة والهلاوس فيما يروْن! اقتربت الدوّامة منهم، وأصبح ابتلاعهم أمرًا وشيكًا، فهتفت حسناء «فليُمسك كلّ منّا بيدِ الآخر، علينا ألّا نفترق، وربما كل هذا محْض تهيؤاتٍ» توقّفوا عن الركض، تمسّك فؤاد بيدِ شمس وحسين ثمّ قبض حسين جيدًا على يدِ شقيقته، وبعدَها تمسّكت حسناء بيدِ زهرة، التي كان قلبها يرتجف خوفًا ولا تعلم لمَ حينما قبضَ شمس على يدِها غمرها الأمان! قال فؤاد برعبٍ بعدما مسّ يدَي صديقيه «إنّها حقيقية تمسّكوا جيدًا، واستعدّوا» ابتلعتهم الدوّامة، تقلّبت أجسادهم عن الأيامن والشّمائل، تخبّطتهم الدوّامة بلا هوادةٍ، مازالوا يُجابهونها ويشدّون على أياديهم، لا يعلمونَ ما حدث لهم! كأنّ الدوّامة أفقدتهم وعيهم ثمّ قذفتهم في مكانٍ آخر، حسين أول مَن استيقظ، رآهم مطروحين أرضًا جانب الشاطئ، فأسرعَ نحو حسناء، أيقظها ثمّ أيقظَ الباقين، وقفوا مُترنّحين يتأمّلون المكان، البحرُ أمامهم وخلفهم على اليمين جبل، وعلى اليسارِ أطرافُ الغابة التي كانوا فيها قبلَ أن تبتلعهم الدوّامة، رفع شمس الخريطة فوجدوا ذاتَ المشهد الذي يروْنه بأعينهم الآن مرسومًا فيها، وهناك إشارةٌ نحو قمة الجبل كُتبت

ملاحظة جانبها «كهف بيرو»، قالت زهرة بفرح «لا أصدّقُ أننا وصلنا» ثمّ تابعت برجاء «أتمنّى أن تكون نهاية هذه المغامرةً هنا! لقد كُتب في الدّفتر أنّ التوقيت المثالي لإعادة الحجَر عندَ اكتمال القمر، أي الليلة، علينا أن نُسرع».

ساروا نحوَ الجبل وبدؤوا صعودَه بحذر، لم يكن عاليًا، كما أنّهم وجدوا طريق الصعود مُمهّدًا، الجوّ يزداد برودةً كلّما صعدوا، توقّف فؤاد في منتصف الطريق وطلب منهم أن يأخذوا قسطًا من الرّاحة، فجلسَ كلّ منهم في مكانه، نهض حسين قائلًا «سأتجوّل في الأنحاء القريبة».

فسأل شمس «لماذا؟»

كرّر مقولته ضاغطًا على حروفه أكثر، ثمّ عاود شمس سؤاله، فقال حسين مُغاضبًا

«سأتجوّل في الأنحاء، لا تكن غبيًّا».

أخرجتْ حسناء طعامًا من حقيبتها ووزّعته عليهم، جلس فؤاد بعيدًا عنهم فاقتربت منه وناولتْه شطيرة، كان شاردًا فنادته، انتفضَ حينما سمع اسمه، فسألت بقلقٍ «هل أنت بخير؟»

أومأ بوجهٍ واجمٍ، جلست بالقرب منه قائلةً:

«لم أستطعْ شكرك على محاولة إنقاذي، فشكرًا لك».

قال «لا أرى ما يستحقّ الشّكر!»، ثمّ رسمَ شبح ابتسامة فكرّرت سؤالها، أجابها بالسّكوت ثمّ قال «هذا هو نفسُ الجبل الذي رأيته».

قالت مُستفهمةً «ماذا تقصـ»، تذكّرت الحلم الذي رآه فابتلعتْ حروفها، ثمّ حاولت طمأنتَه بقولها «ربما كانت أضغاث أحلامٍ يا فؤاد».

رفعَ حاجبيه مُتعجّبًا من قولها، ثمّ قال «أضغاث أحلام بعدَ كلّ ما رأيناه في هذه الرحلة! كلّ شيءٍ كان حقيقيًّا كما أنّ انقباضة قلبي تحذرني».

بدتْ حروفُها ضائعة، لا تعلم كيف تبثّ الطمأنينة في قلبه، فقال «أتعلمين يا حسنائي!»

انتبهتْ للياء التي أضافها لاسمها، فابتسمت، وانتقلت عدْوى الابتسام إلى ثغره:

– تعمّدتُّ أن أضيف الياء لأرى هذه الابتسامة، التي انعقدت آمالي على معاقدها.

اتّسعت ابتسامته حينما رأى حمرةَ الخجل تصبغ وجهَها، وبصرُها يزوغ في كلّ مكان بعيدٍ عنْه، فتابع:

– عشتُ طوالَ حياتي وحيدًا بلا أهلٍ ولا صديق، لم يكن والدُك وحده خائنًا فقد كانت زوجتي مثله.

نظرتْ إليه بدهشةٍ فقال:

– أجل، هذا هو وجَعي الذي أُتقن إخفاءه، هي أوّل امرأة تسكن قلبي، كانت في عيني بكلّ نساء الأرض، وحينما خانتني أصبحَ كُلهنّ في عيني خائنات، عشتُ بألم غائر في صدْري حتى لمستُ يدك، في تلك اللّحظة انقشعتْ سحائبُ آلامي، شعرتُ أنني أعرفك منذُ لحظة ميلادي، شعرتُ منك بدفءٍ لم أشعره منها!

سكتَ لحظةً ثمّ قال:

– أحبّكِ يا حسناء.

سرتْ قشعريرةٌ في جسدها جعلتْه يرتجف، فقال:

- أردتُ ذاتَ مرّة أن أخبر أبي أنّني أحبّه، لكنّ الموت خطفَه قبل أن أخبره، فظللت طوال حياتي مقهورًا، والآن.. لا أريد أنْ أموت بنفس القهْر على كلمةٍ لم يمهلني الموتُ لقولها، ها أنا ذا أقولُ إنّني أحبكِ يا حسناء.

لمعتْ عيناها وهي تقول:

- ستعيشُ يا فؤاد، لا تقلْ هذا الكلام أرجوك، ستعيش لا تخفْ.

ابتسمَ ثمّ قال باطمئنانٍ:

- لستُ خائفًا، قال لي جدّي ذات مرّة، قبلَ موتِك تأكّد من أنّك تسكن قلب أحدهم لأنّ القلوب وحدَها مَن تُحيي الأموات، حينما رأيت الحلمَ كنتُ خائفًا من الموت وحْدي، وبعدما أصبحتُم أهلي وأصبحَ حبّكِ أنسًا في قلبي؛ لستُ خائفًا لأنّني على يقينٍ بأنّ هناك مَن سيذكُرني بعد موتي، سأظلّ حيًّا بفضل قلبكِ يا حسناء، أليس كذلك؟

فاضتْ دموعُها وهي تُومئُ، انعقدَ لسانها، خلعَ القلادة ووضعَها في كيس صغير مخمليّ من القطيفة، ثمّ قال:

- هذه قلادتي، سأدعُها معك؛ فإذا سقطت لا تتعطّل مسيرتكم.

ابتسمَ بحنانٍ، وتابع:

- اعْتني بنفسكِ جيدًا يا حسنائي.

لم تردّ، فقال مُداعبًا:

– كنتُ أريد أن أعرفَ مَن صاحبة الصوت، الذي صرخَ باسمي في حلمي، ويا لسعادتي الآنَ بعدما علمت أنّه صوتك.

رمقتْه بلوم ثمّ نهضت وتركتْ له القلادة، تبعَها واقتربَ من حقيبتها، وضع فيها القلّادةَ دونَ أن تراه، ثمّ قال:

– هيّا بنا، لا وقت لدينا.

خُطفَ لونها، فقالت بترددٍ:

– بلْ هناك وقت، أيمكن أن نتمهّل؟

قال حسين أثناءَ عودته، وهو يعدل هندامَه بعدما ترامى إلى مسامعه ما قال فؤاد:

– لماذا يا حسناء؟! فؤاد معه حقّ، علينا أن نسرع.

لم تجدْ ما تبرّر به قولها فسكتت، مضوا في طريقِهم وتسمّرت قدماها، اقترب منها فؤاد وهمس:

– لقدْ وضعت الحجَرَ في حقيبتك، إنّه يُرينا ما سيحدُث لا يُغيّره، تعلمت ذلك منكِ.

قال جملتَه ثمّ لحقَ بهم وتركها تدفعُ قدميها للسيْر دفعًا، كانوا في طريقهم نحو الصعود عندما شَعروا باهتزاز الجبل فصرختِ الفتاتان، تمسّكوا جيدًا إلى أنْ عاد كلّ شيءٍ كما كان، فتابعوا سيْرهم بأقدامٍ وجِلة، سحبَ النهار

شمسه وبدأ يُسدِل ستائره مُمهِّدًا لقدوم اللّيل، اهتزّ الجبل مرّة أخرى، تمسّكوا إلّا فؤاد الذي باغتتْه الهزّة فسقط، ها هو يرى الحلم مرّةً أخرى مُتجسِّدًا في الواقع، شعرَ بنسمات هواءٍ باردة تلفح وجهه، الهواء يجذبه بقوةٍ لأسفل، يسمع صفيرًا قويًّا في أذنيه، رفرفَ بيديه مُحاولًا التعلُّق بقشة، بدأ الضوء يخبو شيئًا فشيئًا، خفقَ قلبه بعنفٍ، ثوانٍ وبدأ الظلامُ ينتشر بالفعل، آخر ما سمعه صرخة امرأة تنادي باسْمه، ثمّ اسودّت الدنيا في عينيه، هذه المرّة يعلم مَن صاحبة الصوت؛ إنّها حسناؤه.

***

ألم أقلْ لكُما علينا ألّا نفترق؟!

# (١٣)
# الكمال

صُعقوا حينما رأوه يسقُط، أسرعوا نحوه في محاولةٍ للإمساك بيده، لكنّ سقوطه كان أسرعَ منهم، وبدون تفكيرٍ قفزَ حسين خلفه، صرختْ حسناء «لا، حسين» حينما وصل إلى جسدِه ٍ وجدَه فاقدًا لوعْيه، ضمّه حسين ووجّه جسده لأعلى؛ فحين سقوطهما يتحمّلُ جسدُه السقطة، أسرعَ الثلاثة يركضون نحو الأسفل، حانت اللحظة الحاسمة وقلبُ حسناء يتابعهم وهي تتضرّعُ إلى الله ألّا تفقدَ اليوم أعزّ رجليْن إلى قلبها، حدث ما خطط له حسين، لقد حما جسدَ فؤاد من السّقطة، ورغم قوّته التي منحها له الحجر كانت السقطة مؤلمة! لم يستطعْ أن يرفع جسدَ فؤاد عنه، كلّ ما استطاع فعله هو التأكد من نبضه، اطمأنّ حينما وجده مازال على قيْد الحياة، وصل الثلاثة فهرولتْ حسناء إليهما، رفع حسين يده ليُطمئنها أنّه مازال حيًّا، ورفع «شمس» «فؤاد» عن جسده ثمّ تأكّد هو الآخر من نبضه، وقال «حمدًا لله، مازال حيًّا، ربما فقدَ وعيَه من الخوف». ضمّت حسناء توأمها باكيةً فربّت على رأسها بحنان وهمس «لا تقلقي حبيبتي؛ أنا بخير». نهض حسين بعد دقائق لا يشعر بأيِّ ألم، وكأنه لم يسقطْ للتّو من قمة جبل! قرّبوا عطرًا من أنف فؤاد ففتح عينيه ٍببطء، أوّلُ وجهٍ رآه كان وجهَ حسين الذي ضحك وهو يقول له «حمدًا لله على سلامتك يا رجل، لقد جعلتني ممتنًّا لهذا الحجر اللعين»، كانت عيناه شاخصةً؛ لا يعلم هل مات أم مازال حيًّا؟! حاول أن يعتدلَ في جلسته فباغت قدمَه ألمٌ شديد، ظلّ يتحسس جسده ثمّ سأل «هل

أنا بالفعل حيّ؟» أجابت حسناء بفرحةٍ «ألم أقلْ لك إنّك ستعيش؟» نظر لها بهُيام فبادلتْه نظرته، هذه المرّة لم تحدْ ببصرها عنه، أرادت أن تضمّه بعينيها إلّا أن توأمها هدمَ لذّة اللحظة ووقفَ أمامها ينظر إلى فؤاد مُغضّنًا زوايا عينيه، فغضّ بصره، ثمّ قال:

– عليكم أن تُسرعوا؛ اقتربَ اكتمال القمر.

سأل شمس:

– أتستطيع الصعود؟

أجابَ بأسى:

– لن أستطيع، أشعر بألمٍ شديدٍ في قدمي.

فقال حسين:

– لتستندَ على كتفي، لن نستطيع تركَك هنا وحدك؛ فربما هاجمك مجهول.

فقال مُطمئنًا حسين:

– لا وقتَ لدينا يا حسين، لا تقلق سأكون بخيرٍ وسأنتظركم هنا.

أخرجتْ حسناء القلادة من حقيبتها وقالت:

– خذْ قلادة فؤاد واذهبوا أنتُم، سأظلّ معه هنا، فأنا متعَبة، لن أستطيع صعود الجبل مرّة أخرى.

حدجَها حسين وهو يضغطُ حروفه قائلًا:

– سأسندكِ أو سأحملُكِ يا حسناء، لن تمكثي هنا؛ فربما واجهتم خطرًا.

فقالت:

– بالضبط، لهذا السبب عليّ أن أظلّ هنا؛ لن يستطيع الدفاع عن نفسه.

قالتْ زهرة بانفعالٍ وهي تنظر للسماء:

– هيّا حسين سنعيدُ الحجرَ ونعود إليهما بسرعة، أخشى أن تحدثَ كارثة بسبب تأخرنا.

لم يجدْ بدًّا من تركها معه، نظر إليه بضيق وقال:

– اعتنِ بها جيدًا.

التقطَ القلادة منها، ثمّ اتّجه ثلاثتهم نحو الجبل.

***

هذه المرّة كان صعودُهم الجبلَ هرولةً يعاندون الإعياء الذي أصابهم، إلى أن وصلوا إلى بابِ الكهف، كان البردُ قارصًا فخلعَ شمس سترتَه، ووضعَها على كتف زهرة، حاولت أنْ تعترض فزجَرَها بنظرةٍ أسكتتْها، الكهفُ مُظلمٌ كليليةٍ ليلاء، فأخرجوا المصابيح من حقائبهم، أضاءوها ومضوا في طريقهم، كهفٌ فارغٌ منقوشة حوائطُه برسوماتٍ ولغةٍ غريبةٍ تشبه الهيروغليفية، الطريق طويلٌ، يضيقُ كلّما مضوا قدمًا نحو الأمام، تابعوا سيرهم وظهورُهم محنيّة، ثمّ وصلوا إلى فتحةٍ ضيقة لن يستطيعوا العبورَ منها سوى زحفًا، زحف حسين ثمّ زهرة ومِن بعدها شمس، بعدما عبَروا للجهة الأخرى وجدوا ممرّيْن فقال حسين «لنتفرق، سأفحصُ جهة، وأنتُما افحصا الثانية، ثمّ نلتقي هنا بعدَ قليل»، قالت زهرة بخوفٍ «لا، لنفحصَ الممرّين سويًّا، علينا ألّا نفترقَ مهما حدث»، فقال شمس «حسين معه حقّ يا زهرة، لا وقتَ لدينا، القمر لن ينتظرنا!».

رضختْ لقرارهما، تركهما حسين وذهب من اتجاهٍ وهُما من الآخر، تسير خلف شمس بخوفٍ، لأوّل مرةٍ تشعر به متغلغلًا في قلبها لهذا الحدّ منذُ بداية الرحلة، وصلا لنهاية الممر، لم يجدَا سوى غرفةٍ حينما دخلوها أخلتْها الخفافيش لهم على غرّةٍ منهم، فصرخت زهرة وانبطحتْ أرضًا، حماها شمس بجسده، كان مُمتنًّا للخفافيش؛ التي جعلته على قربٍ منها سمحَ له بأن يشعر بدفء أنفاسها حينما تشبّثت به، وبعد أنْ هربتْ الخفافيش، ابتعد قليلًا فتلاقتِ الأعين، وأسرّ كلّ منهما رغبة في نفسه، أفسدَها خفّاشٌ صغير؛ ضلّ عن القطيع ثمّ قامَ فنفضَ عنه ما علق به من التراب قائلًا:

– دائمًا ما كنت أكرهُ رجلَ الوطواط.

ضحكتْ ثمّ دخلَا الغرفة وفحَصاها فلم يجدَا شيئًا، غرفة فارغة وجدَا على حوائطها نفس النّقوش، كما وجدَا هياكلَ عظمية وجماجم، خرجَا مُسرعيْن نحو الممرّ الآخر ليلحقا بحسين بعدَما تبيّن لهما أنّ الممرّ الذي سلكه هو الصحيح.

***

سارَ في الممرّ بحذرٍ ثمّ توقّف فجأةً حينما سمع صوتَ طفل، ليس كأيّ صوتٍ، إنه صوت ابنه، تلفّت حوله إلى أنْ رآه واقفًا يضحكُ ويفتح ذراعيْه له، فلمعتِ الدموع في عينيه وارتسمتِ ابتسامة حانيةٌ على شفتيه، ركضَ الطفل نحو امرأةٍ توليه ظهرها، عرفها من ظهرها وخصلات شعْرها الأسود الفاحم، إنّها محبوبته، يسمع صوتَ بكائها، فَسالت دموعُه، وقال بصوتٍ مُتحشرج «ألم تسامحيني بعد؟!» لفّت جسدَها نحوه، مسحت دموعَها وابتسمت، ثمّ قالت «سامحتُك يا حبيبي، تعالَ إلى هنا» فتحت ذراعيها

فابتسمَ بفرحةٍ وركضَ نحوها، ها هو على مقْربةٍ من الاختباءِ في حضنها فإذا بشمس يدفعه بعيدًا، نظرَ نحو محبوبته فلم يجدْ سوى سيخٍ من الحديد بارزٍ كان يركضُ نحوه، صرخت زهرة بخوفٍ:

- ماذا كنتَ ستفعل؟ أجننتَ يا حسين! ألم أقل لكما علينا ألّا نفترق؟

اقتربَ شمس منه سائلًا بحنانٍ:

- هل أنتَ بخير يا حسين؟

ظلّ يهزّ رأسه يمنةً ويسرة؛ علّه يعودُ للحلم الذي كان يراه، لكنّه اكتشف أنّها محضُ هلاوس بصريةٍ أصابته بفعْل لعنة الحجَر، لم يتفوّه بكلمة فاحترمَا صمته ولم يسألا عن شيءٍ، قال شمس:

- الممرّ الآخر لم نجد فيه شيئًا، أظنّ هذا هو الممرّ الصحيح، علينا أن نكمل الطريق سريعًا.

تابعوا سيرَهم إلى أنْ وقفوا مشْدوهين في نهايته، لم يكونوا بحاجةٍ للمصابيح؛ في وجودِ بحيرةٍ صغيرةٍ يخرج منها ضوءٌ أزرق يملأ المكان، مكّنهم هذا الضوءُ من رؤية التفاصيل حوْلهم، وكأنّهم خرجوا من الكهفِ إلى مكانٍ آخر، نبتتْ فيه الشجيرات والأزهار ولايعلمون كيف! اقتربوا من المكانِ بأقدام وجلة وعيونٍ مُتّسعة، المياه صافية مكّنتهم من رؤيةِ القاع بوضوح، أبهرَهمَ القاعُ بما فيه من أزهارٍ وأحجار زرقاء تملؤه، تبادلوا النظراتَ ثمّ ودّع كلّ منهم قلادته وخلعَها، كانوا على مرأى من القمر عبر فتحةٍ في السقف فوق البحيرة مكّنتهم من رؤيته وهو يكتمل، تابعوا اكتمالَه ثمّ قال شمس «الآن»، وقفوا عند حافة البحيرة ورفعوا أياديهم بأجزاءِ الحجَر الأربعة، فخرج شعاعٌ أزرق منهم،لم تتحمّل أعينهم قوةَ الضّوء فأغمضوها،

سطعَ الشعاعُ أكثر، ووصل إلى القمر ثمّ جُذبت الأحجار من أياديهم نحو البحيرة.

***

تجلسُ جانب فؤاد، تحتمي فيه رغمَ أنّها الموكّلة بحمايته، رأيَا الشعاعَ الأزرق الذي سطع عند اكتمال القمر من أعلى الجبل فابتسمَا، وقالت حسناء «لقد نجحوا»، ثمّ اختفتِ ابتسامتها وحلّت مكانها نظرات رعبٍ؛ وهي ترى جسدَ فؤاد ينتفض بعنفٍ فجأةً بدون سببٍ واضح!

***

نال الإعياءُ منهم منالًا كبيرًا، لم تتحملْ أقدامهم فسقطوا أرضًا، همست زهرة «أظنّها أعراض انسحاب قوّة الحجر من أجسادنا»، مرّت ثوانٍ ثقيلة عليهم ثمّ بدأ الكهف يهتزّ في ثوانٍ أثقل في انتظارهم، تحاملوا على أنفسهم وخرجوا بسرعة، كان اهتزازُ الكهف يزداد قوةً كلّما مضوا نحوَ باب الخروج، خرجوا زحفًا ثمّ تابعوا طريقَهم ركضًا وتوقّفوا فجأةً؛ حينما رأوا كائنًا غريبًا مرعبًا أسودَ شفّاف الجسد، صرخت زهرة بهلع فجذبها شمس بعيدًا عنه، وركضَ ثلاثتهم نحو الممرّ الآخر، توقّف اهتزاز الكهف ولم يتوقفوا عن ركضهم بكلّ ما يملكون من قوّة في ملاحقةٍ للكائن لهم، وصلوا للغرفة وفاجأتهم جملةٌ مكتوبة بالعربيةِ على الحائطِ بالدّماء «لَا أحد يخرجُ من هذا الكهف»، انتشرَ الرعب في أوصالهم، تمنّى حسين لو كان يمتلكُ الحجَر الآن ليخلّصهم، تخيّل أنّ القوة مازالت لديه فوقف أمام زهرة وشمس مُستعدًّا للهجوم، زمجرَ وهو يركضُ نحو الكائن الذي رفعه من تلابيبه لأعلى ثمّ قذفه بقوةٍ، فخرجتْ صرخة خوفٍ من زهرة وشمس،لم يستطيعَا الاقتراب منه،

وجّه شمس المصباح نحوَه وسأل «حسين، هل أنتَ بخير؟» لم يستطعْ إجابته لكنّه رفع يده بوهنٍ ليُطمئنَه أنّه مازال حيًّا، نظرت زهرة لشمس بخوفٍ، تجمّدَا في مكانهما، جاهلين بما عليهما فعله، رائحة الموت تفوحُ من حولهما، استسلمَا وفردَا ذراعيهما لاستقبال الموت، وفجأة انتبهَا لصرخة ذلك الكائن، رأوا أحدًا يخترق جسدَه الشفاف بشعلة نارٍ فظلّ يصرخ ويتلاشى رويدًا رويدًا إلى أنِ اختفى، اتّسعت أعين ثلاثتهم دهشةً وهُم يرون ابن أسامة واقفًا أمامَهم، وخلفه حسناء قائلةً «كان عليكم أنْ تأخذوا معكم نارًا، أنسيتم أنّهم يخشونَ النار؟» رأتْ أخاها على الأرض فركضتْ نحوه تسأله بهلع «حسين، هل أنت بخير؟» لم يردّ، بل ضمّها إلى صدره، وبكا؛ فبكتْ وهيَ تشدّ على ضمّتها، ثمّ قالت وهي تمسحُ دموعها مُجيبةً تساؤلاتهم التي لم ينطقوا بها:

– لقد عادَ إلينا، أخبرنا أنّه كان معَ أخيه ليلة اختفائه، وظلّ طوال هذا الوقت يتعذّب بتأنيب ضميره؛ إنّه لم يستطعْ إنقاذه، لذا عادَ لينقذنا نحن.

سأل حسين «هل فؤاد بخير؟»، فأجابت: «أجل، ينتظرنا في الأسفل».

ابتسمَ ابن أسامة وقال «هذه المرّة لن تحرموني من ضيافتكم، ولا تقلقوا سأساعدكم للعودة إلى بلدكم، لكنْ علينا أن نسرعَ قبل أن يعود اهتزاز الكهف».

❋❋❋

كلّ منّا في ذاتِه معجزة، كلّ منّا استطاع
أنْ يستمر ويحافظ على نجاحه بمجهوده وحدَه،
اكتشفنا أنّ ما كنّا نحتاجه لتحقيق أحلامنا هو
أن نصدّق أنفسنا، أن نصدّق أننا بالفعل
نستطيع.

## (١٤)

# بعدَ مرورِ عام

تقف وسطَ القاعة وعينُها تصول وتجول في المكان بحثًا عن شيءٍ ناقص، سيحضر الحفلَ كبارُ المصمّمين ورجال الأعمال والفنّانين، اليوم يتحقق حلمها الذي أعدّت له سنين طويلة. تمّمت على كلّ شيءٍ، ثمّ على العارضات وملابسهن، وبعدها ذهبتْ لتبدّل ملابسها قبل حضور الضيوف.

دخلَ من باب القاعة أولُ الحاضرين، لم يتلقّ دعوةً؛ فصاحبُ المكان لا يحتاج لدعوة، قرّر أن يشارك محبوبتَه، ولو دفع كلّ ثروته في سبيل تحقيقها لحلمها وبقائها إلى جانبه في مصر، يشعر بأنّه انتصارُه هو لا انتصارها، دخل المكانَ بابتسامة واسعة، عينه تُفنِّدُ المكان؛ بحثًا عنها حتّى قاطع بحثَه سماعه لصوتٍ من خلفه يقول «وأخيرًا استطعنا رؤيتك! أين أنتَ يا رجل؟ لقد غيّرتك الصحافةُ يا صديقي».

اتّسعت ابتسامته حينما رأى «حسين» واقفًا أمامه يحمل طفلًا، ضمّه باشتياقٍ وهو يقول:

«قلنا مرارًا اتركِ الإسكندرية وعشْ معنا هنا، لكنّ رأسك كالحجر».

قرصَ الصغير من خدّه بلطفٍ، وقال «أين أبواه؟»

فقالَ حسين ناظرًا خلفه «إنهما قادمان خلفي».

دخلَ للقاعة بانتهاء جملته شقيقتُه وزوجُها- أوّل رجال الأعمال المدعوين للحفل- ها قد اجتمعَ شملهم من جديد، وينتظرون خامسَتهم ليكتمل

الشّمل، كان شمس يضحك على تعليقات حسين السّاخرة كعادته، حتّى تجمّدت ضحكته بل تجمّد كل شيءٍ حوله، وهو يراها قادمة نحوهم باسمةَ الثّغر، تسير بخطواتٍ ثابتة، هادئة كالأميرات بفستانٍ مخمليٍّ أزرق، وشعرٍ مرْفوع مصفّف على شكل زهرة يتوسّطها حجر أزرقٌ لامع، رائحة الكرزِ تُسيطرُ على أنفه كلّما اقتربت، استقبلتهم بحفاوةٍ بالغة ثمّ دعتْهم للجلوس، فساروا خلفها يتحدّثون إليها عَدَاه، يتأمّلها في صمتٍ، فلكَزَه حسين في كتفه، ثمّ همس «نظراتك فاضحةٌ يا هذا».

سألَ هامسًا «ألهذا الحد؟»

ضحكَ حسين ثمّ قال «أظنّ اليوم مناسبًا، هل أحضرت الخاتم؟»

أومأ ثمّ سكتَا حينما اقتربتْ منهما حسناء. الحفلُ كان رائعًا كما خططت له زهرة. وفي نهايته قرّر الخمسةُ الاحتفال، ذهبوا لتناول العشاء وتركوا حرية اختيار المكان لزهرة، نظرتْ لشمس ثمّ اختارت مكانَ اللّقاء الأوّل، المطعم الذي التقيا فيه في «مصر القديمة»، ولأوّل مرّة يشعر من نظراتها بأنّها لا تهرب منه، انتظر وصولَهم للمكان، جلسوا وطلبوا طعامهم، نظرَ حسين لشمس فغمزَ بعينه ثمّ أخرج هاتفه وكتب رسالةً لفؤاد وحسناء، نظرتْ لشقيقها بعدم فهم، فأرسل «نفِّذي ما طلبت، وسأخبركما لاحقًا» فنظرتْ لزوجها وقالَت «فؤاد، حبيبي لقدْ رأيت شيئًا أعجبني في المحلّ المجاور للمطعم، هلّا ذهبنا لرؤيته إلى أنْ يصل الطعام؟» أومأ موافقًا ثمّ نهض معها ومِن بعدهم تصنّع حسين أنْ أتته مكالمة من العمل، وخرجَ للرّد عليها، انفرد شمس بزهرة وتنحنحَ فابتسمت ثمّ قالت:

- وأنا أيضًا أحبّك وموافقة على الزواج منك.

اتّسعت عيناه وهو يسأل:

– أمازلتِ تسمعين الأفكار؟!

قهقهتْ ثمّ قالت:

– لم أعدْ أملك هذه الموهبة، اكتشفتُ أنّني كنت من البداية أمتلك موهبة قراءة العيون، لقدْ قرأت سؤالَ عينيك، وها أنا ذا أجيبُك.

***

وصلَه طردٌ بالبريد، فتحه ليجدَ كتابًا غلافُه أزرق لامع، عليه صورة مُعدلة من الرسمة الوحيدةِ للحجر، مرّر أنامله على حروفِ الاسم البارزة «حجَر بيرو»، ثمّ مرّرها على حروفِ اسمه باسمًا «شمس الدين درغام»، فتح الصفحةَ الأخيرة وقرأ ما كُتِب فيها:

«كلّ واحدٍ من أبطال القصّة كان ينتظر معجزةً تحوّلُ حياته، دائمًا ننسى أنّنا بالفعل نمتلك معجزاتٍ كنّا سنصل بها في وجود الحجَر أو لا!

كلّ منّا في ذاته معجزة، كلٌّ منّا استطاع أن يستمرّ ويحافظ على نجاحه بمجهوده وحده، اكتشفنا أنّ ما كنّا نحتاجه لتحقيق أحلامنا هو أن نصدّق أنفسنا، أن نصدّق أننا بالفعل نستطيع..».

تمّت

***

# ما بعدَ النهاية،،

قاربٌ يشقّ الماء، عليه شابٌ يبدو أنّ همومه أثقلته، ودفعتْه لأنْ يهرب إلى هذا المكان المهجور بعيدًا عن البشر، زمجرَ مُحرّك القارب ثمّ توقّف بالقرب من الشاطئ، حاول تشغيلَه مرّة أخرى ولا فائدة، بحثَ بعينيه عمّن صحبوه في رحلته، ولم يجد أحدًا، هبط من القارب وجذبَه نحو الشاطئ، وحينما وصلَ رمى بجسده على الرمال، يحاول استردادَ أنفاسه المتلاحقة، بعدما انتظمتْ أنفاسه نهضَ وتأمّل المكان حوله؛ مِن خلفه الماء، وأَمامه أطرافُ غابةٍ جانبها جبل، جذبَ المنظر أنظارَه كما لاحظَ ارتفاعَ درجة الحرارة فجأة، صعدَ على متن القارب وأخرجَ هاتفه من حقيبة ظهره فاتّسعت عيناه؛ يذكر جيدًا أن بطاريةَ الهاتف كانت على وشك أن ينفدَ شحنُها، فكَيف الآن ممتلئة للمائة؟! لاحظ اختفاءَ الشبكة فزفرَ بغضب، قعدَ في مكانه؛ ينتظرُ قدومَ مَن استأجر منهم القارب ربما لحقوا به، ثمّ ملّ الانتظار، لا أثر لأيّ قاربٍ في البحر، يخشى أن يحلّ الليل عليه في مكانه، نظرَ خلفه للغابة والجبل، وقرّر أن يتفحّص المكان ربما يجدُ بشرًا يساعدونه، ارتدى حقيبته على ظهره، وربطَ القارب في شجرةٍ بالقرب من الشاطئ، ثمّ مضى في طريقه نحو الغابة، كان على وشك دخولها لوْلا أنْ لمح شيئًا لامعًا أسفلَ الجبل، اقتربَ فوجد هيكلًا عظميًّا، وجانبه حجرٌ أزرق لامعٌ، زرقتُه غريبة ومُبهرة،لم يرَ مثيلًا لهذا اللون من قبل، اقترب أكثر، جلسَ القرفصاء ومسّه فكأنّما مسّ سلك كهرباءٍ عار، ارتجفَ جسدُه وكأنّ زلزالًا ضربه، يشعرُ أنّ قفصه الصدري ينطبقُ على ما يحويه، ضاقت أنفاسُه واهتزّت الأرض، وربَتْ من تحته، خرجتْ عيناه من محجريهما، قلبه ينتفض، يشعر أنّه سينفجر الآن، ظلّ جسده ينتفضُ بعنفٍ حتى ظنّ أنّه يودّع الحياة، يشعر بروحه وهي في طريقها نحو الخروج.. وفجأة، سكنَ جسدُه، وعاد النورُ لعينيه، تحسّس جسدَه بعدم تصديقٍ، ثمّ نظر للحجرِ بخوف.

يبدو أنّ لعنة حجَر بيرو لن تنتهي أبدًا.

**تمّت بحمد الله**

ليس كل الميراث مالاً، قد ترثُ مغامرة تقلبُ

حياتك رأساً على عقب....

9 789772 788811

01012355714 - 01152806533
elbasheernashr@gmail.com
elbasheer.marketing@gmail.com
www.darelbasheer.net

دار البشير